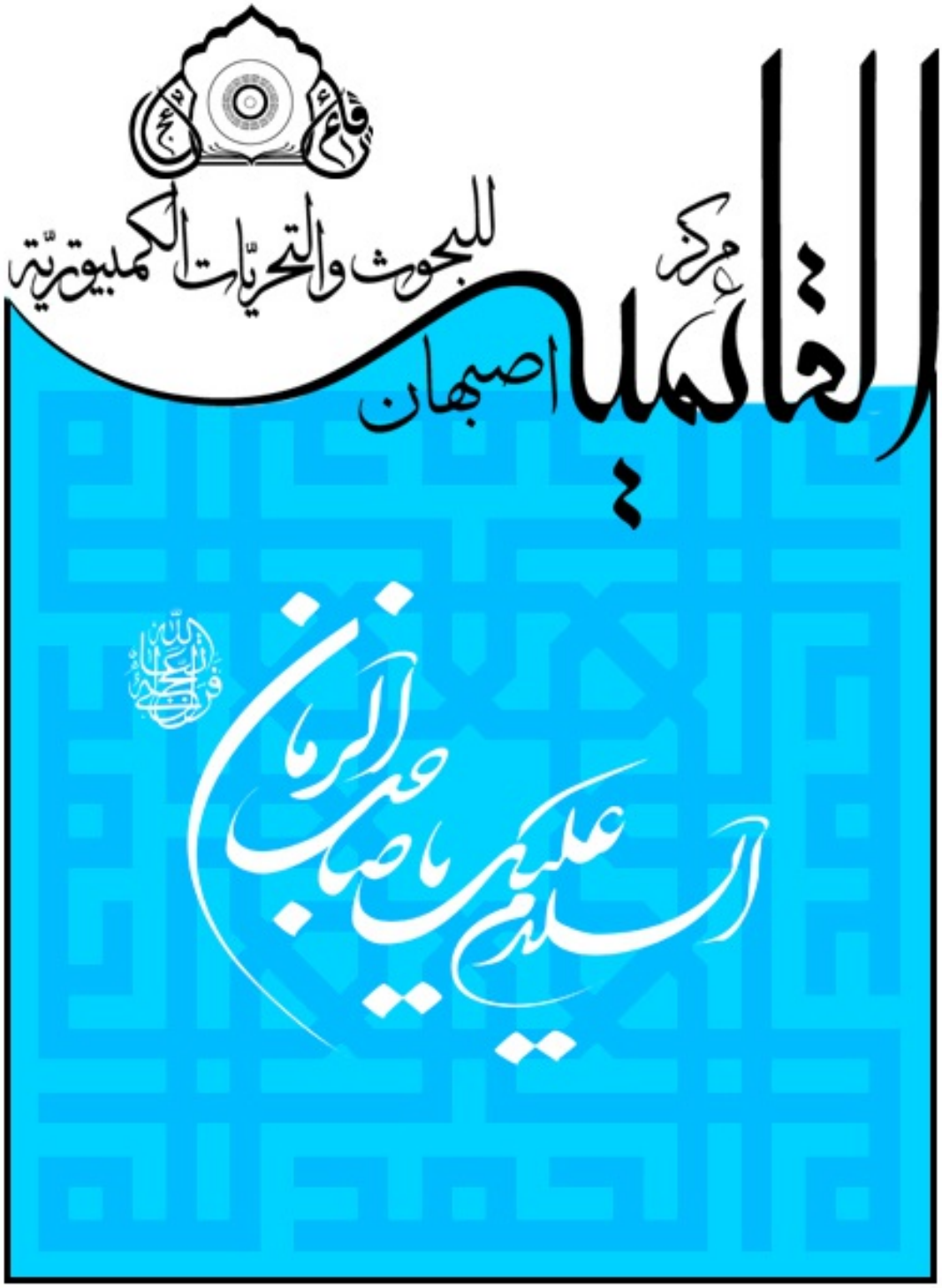


www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

زکی مبارک

# عبقریۃ الشریف الرضی

جلد اول

دار الجیل
بیروت

بسم الله الرحمن الرحيم

# عبقرية الشريف الرضى

كاتب:

زكى مبارک، محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالجيل

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

الفهرس ----- ۵
عبقریة الشریف الرضی المجلد ۱ ----- ۶
اشارة ----- ۶
مقدمة الطبعة الأولی ----- ۶
مقدمة الطبعة الثانیة ----- ۹
عبقریة الجندی المجهول ----- ۱۰
الشاعر المثقف ----- ۲۷
مقام الشریف الرضی بین شعراء القرن الرابع ----- ۳۸
أعوام البؤس فی حیاة الشریف ----- ۴۸
صلات الشریف الرضی بخلفاء بنی العباس ----- ۶۵
صلات الشریف الرضی بالوزراء و الامراء و الملوک ----- ۷۸
العلا و المعالی فی قصائد الشریف ----- ۸۹
الشریف کاتبا و مؤلفا ----- ۱۰۲
نهج البلاغة و الشریف ----- ۱۰۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۱۲

# عبقرية الشريف الرضى المجلد ۱

## اشارة

سرشناسه : مبارک، زکی

نام کتاب: عبقرية الشريف الرضى

نويسنده: زکی مبارک، محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۳۷۱ ه. ق

مشخصات نشر : بيروت: دارالجيل، ۱۹۸۸م = ۱۴۰۸ق=۱۳۶۷.

مشخصات ظاهری : ۲ ج. ( در يک‌مجلد )

يادداشت : کتابنامه

يادداشت : نمايه

موضوع : شريف‌الرضی، محمدبن‌حسين، ۳۵۹ - ۴۰۶ ق.-- نقد و تفسير.

موضوع : شعرعربی -- قرن ۴ ق.-- تاريخ و نقد.

رده بندی کنگره : BP۵۵/۳۳م۲ع۲

شماره کتابشناسی ملی : ۱۰۳۸۱۱۸

موضوع: شعر عربی- نقد و تفسير

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: دار الجيل

مکان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۰۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

## مقدمة الطبعة الأولى

بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه رب العالمين، و الصلاة و السلام على جميع الأنبياء و المرسلين.

اما بعد فهذا كتاب «عبقرية الشريف الرضى» و ما أقول انى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم اخرجت شرح «الرسالة العذراء» و لا سبع سنين كما قلت يوم اخرجت كتاب «النثر الفنى» و لا تسع سنين كما سأقول بإذن اللّه يوم أخرج كتاب «التصوف الإسلامى».

فما شغلت نفسى بكتابى هذا غير خمسة اشهر، و لكنها من اشهر بغداد، لا اشهر القاهرة و لا باريس، و ما كان لى فى بغداد لهو و لا فتون، فكانت الليلة فى بغداد كليلة القدر خيرا من ألف شهر. و التوفيق من اشرف الارزاق.

و كتابى هذا هو مجموعة المحاضرات التى القيتها فى قاعة كلية الحقوق، و كانت تلك المحاضرات من اشهر المواسم فى حياتى، فقد كان اصدقائى يخشون أن يملّ الجمهور بعد اسبوع او اسبوعين، و لكن الجمهور كان يزداد إقباله من اسبوع الى اسبوع، و لم ينقذنى منه غير التصريح بأنى انفقت كل ما كنت املک، و لم يبق إلا ان استريح! و محاضراتى بكلية الحقوق فى بغداد هى الموسم الثانى بعد محاضراتى عن «المدائح النبوية» و هى المحاضرات التى القيتها باسم الجامعة المصرية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة، فهل يتسع

العمر لموسم ثالث فى القاهرة او فى بغداد؟

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأعددت هذه المحاضرات و أنشأت معها

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶

مقالات كثيرة جدا نشرتها صحف مصر و لبنان و العراق، و رججت الحياة الأدبية فى بغداد رجا عنيفا، فذلك كان أقلّ ما يجب أن أصنع فى مقابل الثقة التى شرفتنى بها حكومة العراق، و ذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسى مكانا بين المصريين الذين تشرفوا بخدمة العلم فى العراق من أمثال الأساتذة محمد عبد العزيز سعيد و أحمد حسن الزيات و عبد الرزاق السنهورى و عبد الوهاب عزام و محمود عزمى، و ذلك كان أقلّ ما يجب أن أصنع فى خدمة تلاميذى و تلميذاتى فى بغداد، و قد رأيت فى وجوههم وجوه أبنائى و بناتى فكلفت نفسى فى خدمتهم فوق ما أطيق.

لا- تسألونى كيف ظلمت نفسى فأنفقت من العافية ما أنفقت، فقد ساءنى أن أعرف أن «دار المعلمين العالية» لها فى بغداد تاريخ: فكانت تفتح ثم تغلق، و تفتح ثم تغلق، فاستعنت اللّه و انتفعت بعطف معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبى و أريحية الأستاذ طه الراوى و مودة الدكتور فاضل الجمالى، و عولت على همة زميلى و صديقى الدكتور فؤاد عقراوى، و أقمنا لدار المعلمين العالية أساسا من متين التقاليد الجامعية، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة و الحديثة، و علّمنا طلابها كيف يبحثون و يراجعون، و غرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق و الاستقصاء.

و رأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج فى كل سنة كتابا عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل، فألفت كتابى هذا عن الشريف الرضى، فإن ترفقت شواغلى بمصر و أذنت لى بالرجوع إلى بغداد فسأخرج فى كل سنة كتابا جديدا، و إن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل فى بغداد فسيذكر من يخلفنى أنى طوقت عنقه بطوق من حديد، و أن لا مفر له من أن يشقى فى سبيل «دار المعلمين العالية» كما شقيت.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷

و إنما نصصت على هذه المعانى فى مقدمة هذا الكتاب لأجتدى العطف على «دار المعلمين العالية» و ممن أجتديه؟ من حكومة العراق، فما يجوز أن يغلق هذا المعهد، و إنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافسا قويا لكلية الآداب بالجامعة المصرية.

قد يقول قوم من خلق اللّه: و لماذا ابتدأت بالشريف الرضى؟

إن قالوا ذلك فالجواب عند الاستاذ عباس محمود العقاد، فهو يذكر جيدا أننى قد قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى: كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد فى دراسة أشعار الشريف الرضى.

إن قالوا ذلك فالجواب عند الاستاذ الدكتور طه حسين فهو يذكر جيدا أنى نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضى كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث، لأن له خصائص ذاتية لا نجدها عند أولئك الشعراء.

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادى الموظفين بالقاهرة فقد طلب فى سنة ۱۹۳۲ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر فى اللغة العربية فكانت محاضرتى عن الشريف الرضى.

ابتدأت بالشريف الرضى على غير موعد، فقد رأيتنى فجأة بين دجلة و الفرات، فتذكرت أن قد جاء الاوان لدراسة هذا الشاعر الذى تعصبت له منذ أعوام طوال.

و يشهد اللّه- و هو خير الحاكمين- أنى لم أفكر فى إنصاف الشريف الرضى يوم قدم لى الدكتور شريف عسيران نسخة من كتاب الاستاذ انيس المقدسى عن أمراء الشعر فى العصر العباسى، فأزعجنى أن يهتم بأبى العتاهية و ينسى الرضىّ، مع أن ديوان أبى العتاهية لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد الشريف.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لى غاية فى التعصب للشريف الرضى فليتق اللّه فى نفسه، و ليذكر ان الدكتور زكى مبارك لو كان أنفق نشاطه فى الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء و لكنه- بلا أسف- سيموت فقيرا لأنه أنفق نشاطه فى خدمة الأدب العربى.

و الأدب العربى خليق بأن يكون له شهداء، و أنا فى طليعة أولئك الشهداء.

سيرى قراء هذا الكتاب أنى قد جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، و قد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون فى جرائد بغداد: أيكون الشريف أشعر من المتنبى؟

و أستطيع أن أجيب بأن الشريف فى كتابى أشعر من المتنبى فى أى كتاب، و لن يكون المتنبى أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتابا مثل هذا الكتاب! و القول الفصل فى هذه القضية أن المتنبى فى بابه أشعر من الشريف، و الشريف فى بابه أشعر من المتنبى، و كل عبقرىّ هو فى ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه، و الشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء لأنه جرى فى ميادين سيظل فارسها السبّاق على مدى الاجيال.

و ما الذى يضرّ أنصار المتنبى حين أقدّم عليه الشريف؟

هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبى كما أحفظ ديوان المتنبى؟

إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأننى كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبى، ولى على ذلك شهود! منهم الشيخ أحمد السكندرى و الاستاذ عباس محمود و الدكتور منصور فهمى.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹

و ما الذى يضر أهل العراق من ان أهتم بشاعر لا يعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخى و يجهلوا قبر الشريف الرضى؟

إن هذا هو الشاهد على أن العوامّ أحفظ للجميل من الخواصّ! إن كان خصومى فى بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضى عنه ناس و غضب عليه ناس فليذكروا أننى كنت كذلك طول حياتى فوضعت بالنقد قوما و رفعت آخرين، وفقا للحق لا طوعا للأهواء.

و أنا و اللّه راض بأن يغضب علىّ أهل بغداد، فقد غضبوا على أبى طالب المكى فمنحوه الخلود.

أنا أحب الخصومات لأنها تذكى عزيمتى، و من أجل هذا أنظر نظر الجزع على مصير خصوماتى فى بغداد، فلن يكون لى فى بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب، و إنه لقادر على أن يفجّر العطف فى القلوب المنحوتة من الجلاميد.

سيذكر ادباء بغداد أننى أحييت شاعرا هو من ثروة العروبة و ثروة العراق، سيذكر أدباء بغداد أننى وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عرف النعيم و البؤس فوق ثرى بغداد.

و كتابى هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الادبى، القواعد التى اذعتها فى كتاب «الموازنة بين الشعراء» و هو من أجل هذا لون جديد فى اللغة العربية، و سيكون له تأثير شديد فى توجيه الدراسات الادبية، و قد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين.

و بيان ذلك أنى لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الاستاذ من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰

التلميذ، كما يفعل المتحذلقون، و إنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق، و التشابه بينى و بين الشريف الرضى عظيم جدا، و لو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق، فقد عانى فى حياته ما عانيت فى حياتى: كافح فى سبيل المجد ما كافح و جهله قومه و زمانه، و كافحت فى سبيل المجد ما كافحت و جهلنى قومى و زمانى.

و هذا الترفق فى معاملة الشريف ليس نزوة شخصية، و إنما هو وثبة علمية، فما كان يمكن ان أكون وفيا للبحث إلا إن سايرت الشاعر الذى أعرض عقله و روحه على تلاميذى، و هذه هى المزية التى انفرد بها بين أساتذة الادب العربى.

سايرت الشريف مسايرة الصديق للصديق: فان آمن آمنت، و إن كفر كفرت، و إن جدّ الشريف جددت، و إن لعب لعبت، إن عقل

الشريف عقلت و إن جنّ جننت، إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هى الحرب قلت صدقت، و إن قال: إن الحياة هى الحب، قلت: و الحب حياة! و لكنى مع هذا عاملته معاملة الصديق الامين فنبهته إلى عيوبه بتلطف و ترفق، نبهته تنبيها دقيقا جدا لا يفطن اليه إلا الاذكياء- و فى بنى آدم اذكياء نبهته إلى عيوبه اكثر من ستين مرة، و ما أظنه يحقد علىّ لأن الصديق الذى فى مثل حالى تغفر له جميع الذنوب.

و الشواهد فى هذا الكتاب كثيرة جدا، و ذلك هو اسلوبى فى البحث فأنا اشغل القارىء بالشاعر الذى أدرسه اكثر مما اشغله بنفسى، و هذه إشارة ارجو ان ينتفع بها المتحذلقون.

اعتمدت على طبعة بيروت و صححت ما صادفنى فيها من اغلاط، و شرحت

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱

ما يجب شرحه من الاشعار خدمة للقارىء الجاحد الذى لا يفهم قيمة الوقت الذى ينفقه الشارح فى تحديد المعانى، و صححت الكتاب كله بنفسى تصحيحا دقيقا، فان رأى فيه القارىء أغلاطا فذلك ذنب العجلة لا ذنبى، و أدخلت فنونا من الذوق على الطباعة فى بغداد سيذكرها من عاملت من اصحاب المطابع.

بغداد هذا كتابى، أقدمه بيمينى فى تهيّب و استحياء، فان رضيت عنه فذلك لطف و رفق، و إن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل! اصنعى فى ودادى من التنكر و التقلب ما شاء لك الدلال، أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبى و عقلى ما عجزت عنه القاهرة و باريس.

أنت مظلومة يا بغداد، و انا مظلوم يا بغداد، و الظلم يجمع بين القلوب.

نصرك اللّه و نصرنى، و رعاك و رعانى، إنه سميع مجيب! و عليك منى السلام! ۳۱ آذار سنة ۱۹۳۸ زكى مبارك

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲

بسم اللّه الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الثانية

باسم اللّه الذى أمدّنى بالصبر على مكاره الحياة الأدبية، باسم اللّه الذى حبب إلىّ الأنس بعناء البحث و الدرس فى غفوات الليل، باسم اللّه اقدم الطبعة الثانية من كتاب «عبقرية الشريف الرضى» مصحوبة بزيادات و تحقيقات رجوت بها أن يكون كتابى هو الفيصل فى قضاء حق الشريف.

و هذا الكتاب هو صورة من صور النشاط الذى بذلته حين تشرفت بخدمة العلم و الأدب بدار المعلمين الغالية فى بغداد، و هو عزيز على جدا: لأنه جعل لى مقام صدق فى الأقطار العربية و الإسلامية، و لأنه من كرائم الذكريات التى خلفتها فى ديار الرافدين، و لأن القلم جرى فيه بأسلوب ما أحسبنى سبقت اليه فى شرح اغراض الشعراء، حتى كدت اتوهم أنى طفت بأودية لم تعرفها الملائكة و لا الشياطين! و ما تذكرت عهدى بدار المعلمين العالية فى بغداد إلا ذكرت بالخير تلامذتى و زملائى هناك: فقد كانت أيامى فى صحبتهم من أخصب العهود فى حياتى.

حفظ اللّه عليهم نعمة العافية، و جعلهم من ذخائر الأدب الرفيع! هذا، و قد كان قيل إنى احتفلت بالأسلوب فى هذا الكتاب، و اقول إنى لم أتعمد ذلك، فقد كانت المطابع تأخذ الموادّ ورقة ورقة بحيث لم أستطع مراجعة ما كنت أكتب من أفانين البحوث، و كنت حينذاك اغذّى مطبعتين فى وقت واحد، مع الاشتغال بأصول كتاب «وحى بغداد» و كتاب «ليلى المريضة فى العراق» و كتاب ثالث سيعلم القراء أنباءه بعد حين، و تلك جهود لا يتسع معها الوقت للزّخرف و التنميق.

و إنما فتن بأسلوبى فى هذا الكتاب من فتن لأنه رآنى اقبس من النار التى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳

قبس منها الشريف، و من هنا جاز لأحد الفضلاء أن يقول فى إحدى مجلات بغداد «إن نثر زكى مبارك له روعة تفوق روعة شعر الشريف فى بعض الأحيان» فان صح ذلك القول فهو شاهد على قوة الصلة بينى و بين الشريف، و هو ايضا من علائم التوفيق، فما كان يجوز ان نلقى الشريف إلا بنثر يماثل شعره فى القوة و العذوبة و الصفاء.

أيها الشريف! لقد قضيت حقك و انصفتك، و أيدت مركزك فى عالم الخلود، بلا منّ عليك، و هذا كتابى أقدمه هديّة اليك بمناسبة مرور الف سنة على ميلادك، و انا أحمد اللّه الذى وصل جناحى بوطنك لأحلق فى الجوّ الذى عشت فيه فأرى اسرار قلبك و سرائر روحك، و القاك وجها لوجه بين مدارج الرشد و الغى فى ضمائر «الزّوراء».

و أرجو- ايها الشريف- أن تنسى بعض ما قدمت اليك من إساءة فى هذا الكتاب، فمن واجب الصديق ان ينسى هفوات الصديق، إذا صدرت عن إخلاص للأدب و غيرة على التاريخ.

مصر الجديدة محمد زكى عبد السلام مبارك

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴

## عبقرية الجندى المجهول

أيها السادة:

من طرائف ما اصطلح الناس عليه فى العصر الحديث إقامة ضريح يحج إليه المشغوفون بتقديس البطولة و الأبطال، و هو الذى يسمونه قبر الجندى المجهول، و ذلك القبر يضم عظاما لا يعرف صاحبها على التحقيق، و لكنها فى أذهان الناس رمز التضحية و الاخلاص.

قد يكون ذلك الجندى أشجع الجنود، و قد يكون أجبن الجنود، و لكنه فى جميع حالاته أسعد الأموات، لأن النار المقدسة تظل مشبوبة فوق قبره صباح مساء، و لأن قبره يظل كعبة تقدم إليها أطيب القرابين، من الازهار و الرياحين، فهو إن كان فى حقيقة أمره من أشجع الجنود حمد الطالع السعيد الذى قضى بأن ينال حقه فيكون رمز الوفاء، و إن كان من الضعفاء الجبناء شكر اللّه على ستر حاله فأضافه إلى الشهداء.

و إقامة الضريح للجندى المجهول هى أعظم تعزية لأرواح الأبطال الذين جهلت أقدارهم بعد الموت، فكلهم يرجو أن يكون الصورة التى يتمثلها من يزور قبر الجندى المجهول، و كلهم يرجو أن يكون له حظ من الذكرى و من الدموع يوم يحج الناس إلى ذلك القبر فى المواسم و الأعياد.

و لكن حدثونى، أيها السادة، كيف يكون شعور الروح، روح الجندى المعروف لا المجهول، حين يمر الناس على قبره فلا تلوح لهم من وجهه صورة، و لا يعترضهم من روحه مثال؟

كيف يكون شعور الروح، روح القائد المغوار الذى يمر الناس على قبره فلا يذكرون كيف صارع النوائب و صاول الخطوب؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵

حدثونى كيف يكون شعور ذلك الروح، و كان فى دنياه أرقّ من الزهر، و أقسى من الزمان؟

و لو كان ذلك الروح يعرف أن عظامه دفنت فى أرض موات لهان عليه خطب النسيان! و لكنه يعرف أن عظامه دفنت فى أرض تخرج أطيب الثمرات، و تختال بمن يمشى فوقها من أقطاب الرجال، كيف يكون شعور ذلك الروح فى تلك الأرض: الروح الذى اسمه «الشريف الرضى» فى الوطن الذى اسمه «العراق»؟

و لكن مهلا فلن ينسى الشريف الرضى بعد اليوم، فستنشر ذكراه فى جميع الأقطار العربية، و سيذكر فى أكثر اللغات الاجنبية، و سيحيا شعره على الالسنة و القلوب فيما سيأتى من الأجيال، قد تسألون؟ و كيف تحكم على الشريف الرضى بالخمول و هو جدّ معروف؟

و أجيب بأن الشريف الرضى لقى فى دنيا الأدب أعنف ضروب العقوق: فهو أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، و أعظم شاعر تنسم هواء العراق، و مع ذلك سكت عنه النقد الأدبى فلم يؤلف عنه كتاب و لا فصل جيد من كتاب، و لو كان ديوان الشريف الرضى فى لغة الفرنسيس أو الانجليز او الالمان لصنّفت فى شعره مئات المصنفات و أقيمت له عشرات التماثيل:

أليس من العجيب أن يطبع ديوان الشريف الرضى منذ ثلاثين سنة فى وطن غير وطنه، ثم لا يعاد طبعه بعد ذلك الحين.

أليس من العجيب أن لا يعرف قبر الشريف الرضى على التحقيق فيقام له ضريح فى الكاظمية، مع ان مترجميه ينصون على أنه دفن فى كربلاء؟

أليس من العجيب أن يسألنا الاستاذ على الجارم بك المفتش الاول للغة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶

العربية بوزارة المعارف المصرية عن المصدر الذى يرجع اليه فى أبيات الشريف:

و لقد وقفت على ديارهمو طلولها بيد البلى نهب

فبكيت حتى ضج من لغبنضوى و لجّ بعذلى الركب

و تلفتت عينى فمذ خفيتعنى الطلول تلفت القلب

و أن يجزم بأنه لم يرها فى ديوان الشريف مع أنها مثبتة فى الديوان و كان ذلك دليلا على أن الشريف منسى لا يعرف ديوانه رجل فى منزلة الجارم و هو شاعر مجيد؟! على أن هذه الأبيات لم يعرفها الادباء إلا لأنها اتصلت بحادثة وجدانية تناقلها المؤلفون، و لو لا ذلك لظلت مطمورة لا يرويها سامر و لا يتمثل بها خطيب.

قد يكون فيكم من ينكر أن يكون الشريف الرضى من الخاملين.

و أنا أيضا أنكر ذلك الخمول.

و لكن حدثونى فى أى ميدان كانت نباهة الشريف عند المؤلفين و الناقدين لقد تكررت الإشارة إلى اسمه عند القدماء من المؤلفين بالعربية، و عند المحدثين من المستشرقين الذين نوهوا باسمه فى اللغات الأوربية.

و لكن كيف وقع ذلك؟ لقد وقع فى معرضين: الأوّل فى التاريخ السياسى حين تحدث المؤرخون عن النضال بين الفاطميين فى مصر و العباسيين فى العراق، فقد حدثوا أن الشريف الرضى قال فى التعريض بحكومة الخليفة القادر باللّه.

ما مقامى على الهوان و عندىمقول صارم و أنف حمىّ

و إباء محلّق بى عن الضّيم كما راغ طائر وحشىّ

أىّ عذر له إلى المجد إن ذلّ غلام فى غمده المشرفىّ

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷ ألبس الذل فى ديار الأعادىو بمصر الخليفة العلوىّ

من أبوه أبى و مولاه مولاى إذا ضامنى البعيد القصىّ

لفّ عرقى بعرقه سيدا الناس جميعا محمد و علىّ

إن ذلى بذلك الجوّ عزو أوامى بذلك النقع رىّ

قد يذل العزيز ما لم يشمّرلانطلاق و قد يضام الأبىّ

إن شرا علىّ إسراع عزمىفى طلاب العلا و حظّى بطىّ

أرتضى بالأذى و لم يقف العزم قصورا و لم تعزّ المطىّ

تاركا أسرتى رجوعا إلى حيث عذيرى قدّ ورعى وبى

كالذى يخبط الظلام و قد أقمر من خلفه النهار المضىّ

و لهذه الابيات قصة أشار اليها ابن أبى الحديد، و لو لا صلتها بالتاريخ السياسى لسكت عنها الكاتبون، و للسبب عينه تحدث المؤرخون عن أبياته فى خطاب القادر باللّه:

عطفا أمير المؤمنين فاننافى دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوتأبدا كلانا فى المعالى معرق

إلا الخلافة ميزتك فانني‌أنا عاطل منها و أنت مطوّق

أما المعرض الثانى الذى أثير فيه اسم الشريف الرضى فهو الكلام عن صحة النسب، نسب كتاب نهج البلاغة الذى جمع فيه الشريف ما أوثر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه من الخطب و الحكم و العهود، فقد ارتاب بعض الناقدين فى نسب ذلك الكتاب و رجحوا أنه من إنشاء الشريف. و المقام لا يسمح بتحقيق هذه القضية، و قد أشرت اليها فى كتاب النثر الفنى فلا أعود اليها الآن، و إنما يهمنى أن أسجل أن الثورة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸

على نهج البلاغة كانت السبب الثانى فى نباهة الشريف، و إنما كانت كذلك لأن الكتاب منسوب إلى على بن ابى طالب، و هو فى جوهره يؤرخ أخطر المعارك القلمية و الخطابية فى العصر الاسلامى، و تصحيحه أو تزييفه يعدّ من المواقف الحاسمة فى ذلك التاريخ.

فتصوروا كيف يكون الحال لو لم تشأ المقادير أن يقرن اسم الشريف الرضى باسم على بن أبى طالب، تصوروا كيف كانت تحمل ذكراه و هو كاتب مبدع لا يعرف التاريخ الادبى له أثرا فى النثر الفنى إلا حين يدّعى أنه المنشىء لتلك الخطب و الحكم و العهود.

كان من حظ الشريف الكاتب أن يقرن اسمه باسم على بن ابى طالب، و إلا فحدثونى أين رسائله الطوال التى كانت تقع فى ثلاث مجلدات؟

تقولون: إن التاريخ تحامل على الشريف بسبب التشيع، إن صح ذلك فحدثونى كيف سكت عنه ادباء مصر و الشام و الحجاز و المغرب و الاندلس و هم لا يعرفون العصبية ضد التشيع؟ بل حدثونى كيف سكت الشيعة أنفسهم عن رسائل ذلك الكاتب البليغ.

تقولون: إن للشريف الرضى قبة تزار بالكاظمية؟

أهلا و سهلا، و لكن هل تعرفون لأى معنى يزور الناس قبته بالكاظمية؟

أعيذكم ان تقولوا إنهم يزورونها باسم الادب و البيان.

إنهم يزورونها لمعنى دينى صرف، كما يزور المصريون قبة عمر بن الفارض، و لو لا ما شاع و ذاع من أن ابن الفارض من الاولياء لما عرف المصريون ان له ضريحا يزار و تلتمس به البركات و هل عرف المصريون قبر ابن هشام الانصارى الذى رفع القاهرة مكانا عليا و جعل هامتها فى النحو مساوية لهامة بغداد؟

هل عرف المصريون قبر ابن خلدون الذى يعدّ أشرف و أعلم من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹

درسوا بالازهر الشريف؟

هل عرف المصريون قبر القلقشندى الذى دان اللغة العربية بأفضل كتاب فى تاريخ الإنشاء و هو «صبح الأعشى»؟

هل عرف المصريون قبر النويرى أول مؤلف فى الموسوعات العربية؟

هل عرف المصريون قبر ابن منظور صاحب المعجم الباقى على الزمان، صاحب لسان العرب الذى ألفه و هو جالس على الحصير الممزق بحى الحسينية؟

و كيف تقولون ان الشريف الرضى خمل بفضل التشيع و هو مذهب له قواعد و أصول، مع أن المجون كان من أسباب شهرة أبى

نواس، و مع أن الزندقة كانت من أسباب شهرة أبى العلاء؟

أ فى الحق ان الرجل لا يشتهر إلا إن أصبح على وفاق مع جميع الناس؟

أ فى الحق أن الفضل وحده يسمو بالرجل إلى أرفع الدرجات؟

إن قلتم ذلك فقد تحدثكم شواهد العصر الحاضر بضد ما تقولون، ألسنا فى هذا العصر فرائس للتيارات الاجتماعية و السياسية؟

ما هى الاسباب التى قضت بشهرة محمد عبده و قاسم أمين؟

هل يعرف أحد اليوم ان محمد عبده كان فى حقيقة أمره من العلماء المحققين الذين يدركون أسرار العلوم العقلية و النقلية؟ هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل نضاله الدموى فى إصلاح المناهج الازهرية و الثورة العرابية، و لو رفع هذان الحادثان من حياته لما عرف له تاريخ.

هل يفهم أحد اليوم أن قاسم أمين كان من أقطاب التشريع؟ هيهات هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل ثباته فى الدعوة إلى السفور و حرب الحجاب.

آمنتم الآن بأن الشريف الرضى لم ينل الشهرة إلا بفضل المشكلات السياسية و الدينية، ثم تسألون: و لكن كيف كتب على الشريف الرضى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰

أن يرزأ فى عالم الشعر بذلك الخمول؟

و نجيب بأن الامر كان كذلك لأن أدباء اللغة العربية ندر عندهم أن يكون الفن وحده هو مرجع النباهة و الشهرة و بعد الصيت: فامرؤ القيس لم تكن شاعريته سبب شهرته، و لو لا انتقاله من أرض إلى أرض و موته مسموما فى سبيل الثأر لابيه لما ذكره الذاكرون، و طرفة بن العبد لم يسر ذكره إلا لموته قتيلا و هو فى سن العشرين، و حسان لم يشتهر إلا لانه كان شاعر الرسول، و الشاعر المفلق أبو نواس لم تكن شاعريته سبب شهرته و إنما اشتهر بفضل اشتراكه و هو راغم فى فتنة الامين و المأمون، و أبو تمام لم يشتهر بفضل شاعريته، و إنما اشتهر لانه سجل فى شعره حادثة رجّت الارض و هى فتح عمّورية، و البحترى لم يشتهر بفضل شعره، و إنما اشتهر لانه حضر مأساة دوّنها التاريخ: و هى شهوده قتل المتوكل و الفتح بن خاقان، و المتنبى لم يكن شعره سبب شهرته، و إنما اشتهر بفضل حادثتين ظاهرتين:

الاولى: رحلته إلى مصر فى سبيل المجد، و الثانية: موته قتيلا بالبيداء.

و لم يتفق للشريف الرضى شىء من ذلك، فقد كان يطلب الخلافة سرا لا علانية، و لو تمّ له ما أراد من الملك لعرف الناس شاعريته و سطروا فى الثناء عليه مئات التآليف، و لكنه مات ميتة عادية، فلم يذكر الناس يوم موته إلا أنه رجل شريف ينبغى أن يدفن بجانب جده الحسين فى كربلاء.

و لست بهذا أتجنّى على أسلافنا من أدباء اللغة العربية، و إنما أذكر حقائق مؤلمة كانت السبب الاصيل فى انحراف الموازين.

فإن لم يكن ذلك صحيحا فحدثونى عن المشهور من قصائد الشريف؟

أليست قصيدته فى رثاء أبى إسحاق الصابى أشهر شعره؟ بلى، هى كذلك، فهل تعرفون أن تلك القصيدة لم تشتهر إلا بفضل ما اتصل بها من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱

الشذوذ، إذ كانت فى رجل صابىء يرثيه سيد شريف؟

فان تخطيتم هذه القصيدة لم تجدوا من يعرف عيون القصائد فى ديوان ذلكم الشاعر العظيم.

أين من يعرف الدالية:

جرّى النسيم على ماء العناقيدو عللى بالأمانى كل معمود

يا نفحة هزت الأحشاء شائقةفذكّرت نفحات الخرّد الغيد

أين من يعرف العينية:

منابت العشب لا حام و لا راعمضى الردى بطويل الرمح و الباع

أين من يعرف اللامية:

أمل من مثانيها فهذا مقيلهاو هذى مغانى دورهم و طلولها

و لو كان أسلافنا من أدباء اللغة العربية تستهويهم المعانى مجردة عن الحوادث الدامية لوجدوا فى أشعار الشريف أوسع مجال: فسترون عنده كرائم الطيبات، سترون أن ذلك الرجل عانى فى حياته أعنف أزمات الوجدان، سترون كيف كان الرجل يشغل أعظم وظيفة دينية و هى نقابة الأشراف ثم يكون فى الوقت نفسه أعظم شاعر يتغنى بالحب و الجمال، سترون أن الشريف الرضى تفرد بوصف مواسم العيون و القلوب فى الحجازيات، سترون أنه قال فى الصداقة و الأصدقاء ما لم يسبقه اليه سابق، و ما يعسر أن يلحقه فيه لاحق، سترون أن كلمة (العلا) و كلمة (المعالى) لم يهتف بهما خاطر أشرف من ذلك الخاطر، و لم يلهج بهما لسان أفصح من ذلك اللسان، سترون أن العفاف لم يجد شاعرا يجعله أظرف من الفسق و أعذب من المجون غير ذلك الشاعر العفيف الشريف، سترون أن الأحباب الذاهبين لم يجدوا من يبكيهم بأندى من ذلك الدمع و أصدق من ذلك الفؤاد، سترون أن لئام الناس لم توسم جباههم و جنوبهم بميسم أقوى و أعنف من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲

قصائد ذلك الفاتك الصوال.

سترون أيها السادة أن الشريف الرضى كان شاعر القلب و العقل و الذكاء، سترون شاعر الانسانية يفصح عما تعانى من شهوات و أهواء و آلام و أرزاء، و أمان و آمال.

سترون انه يحس ما تحسون اليوم، و يشعر بما تشعرون، مع أنه سبقكم إلى تنسّم هواء العراق بنحو ألف سنة، و سيظل يشاركك الناس فى أحلامهم و أحقادهم آلاف السنين.

أفما كان فى تلك الجوانب النفسية و الذوقية و العقلية ما يلفت أنظار النقاد إلى ذلك الرجل لو كانوا يفهمون أقدار المعانى؟

ألم تكن هموم المجد فى أشعار الشريف الرضى أولى بعناية النقاد من البحث عن شرقات المتنبى؟

أ لم يكن الحرص على تدوين أو ابده فى نقد المجتمع أولى من الحرص على تدوين قصائد ابن الرومى فى شتم الناس؟

ألم يكن فيهم من سمع الشريف و هو يصرخ فيقول:

أنا النّضار الذى يضنّ بهلو قلّبتنى يمين منقد

ألم يكن فيهم من يدفعه التطلع إلى شكواه من طول الليل فى بغداد إذ يقول:

ليلى ببغداد لا أقرّ بهكأننى فيه ناظر الرمد

ينفر نومى كأن مقلتهتشرج أجفانها على ضمد

أما كان فيهم من يسأل كيف ضجر الرجل من أهل بغداد فقال يخاطب الثلج الذى رآه أهلها أول مرة فى شهر ربيع الآخر سنة ۳۹۸.

أقول له و قد أمسى مكباعلى الأقطار يضعف أو يزيد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۳ وراءك فالخواطر باردات‌على الإحسان و الأيدى جمود

و إنك لو تروم مزيد بردعلى برد لأعوزك المزيد

إن النقاد سكتوا عن ضجر الشريف من العراق، و لكنهم لم يسكتوا عن ضجر المتنبى من مصر، لأن ضجر الشريف من العراق لم

تشهره الحوادث، أما ضجر المتنبى من مصر فقد صحبته خطوب تحدث بها الركبان، فكأنّ الرواة و النقاد لا يلتفون إلى الشعر إلا أن دقّت من حوله الطبول.

ألا ترونهم يذكرون ما قال بشار فى التعريض بخلفاء بنى أمية و لا يذكرون ما قال الرضى فى التعريض بخلفاء بنى العباس؟

انهم يذكرون أبيات بشار لأنها جرّت عليه القتل، و لا يذكرون أبيات الرضى لأنه خرج منها بعافية، و إلا فأى شعر أخطر من شعره و هو يقول فى التعريض بخلفاء بنى العباس:

أما تحرّك للأقدار نابضةأما يغيّر سلطان و لا ملك

قد هادن الدهر حتى لا قراع لهو أطرق الخطب حتى مابه حرك

كلّ يفوت الرزايا أن يقعن بهأما لأيدى المنايا فيهم درك

قد قصّر الدهر عجزا عن لحاقهمفأين أين ذميل الدهر و الرتك

أخلّت السبعة العليا طرائقها؟أم أخطأت نهجها أم سمّر الفلك؟

لقد غفل النقاد عن المعانى الانسانية و الشخصية فى أشعار الشريف الرضى، و لم يتحدثوا عن عيون القصائد فى ديوان ذلك الشاعر القليل النظائر و الأشباه، فهل ترونهم قيدوا ما فى أشعاره من الحكم و الأمثال؟

هل سمعتم أن أديبا جاد من وقته بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع فى الغوص على

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۴

ما فى ديوان الشريف من اللؤلؤ المكنون؟

أعيذكم أن تظنوا أن ذلك الشاعر خلا ديوانه من الأبيات النوادر التى تفصح عن بصره بخلائق المجتمع و سرائر الناس، فقد أستطيع أن أجزم بأنه فى هذه الناحية أشعر من المتنبى: لأن المتنبى كان يقصد إلى الحكمة قصدا، و يتعمدها و هو متكلف، أما الرضى فكانت الحكمة تسبق إلى خاطره من فيض السجية و الطبع، فيرسلها عفوا بلا تصنع و لا اعتساف.

ما رأيكم فى هذا البيت:

إذا قلّ مالى قلّ صحبى و إن نمافلى من جميع الناس أهل و مرحب

و هذا البيت:

يغرّ الفتى ما طال من حبل عمرهو ترخى المنايا برهة ثم تجذب

و هذا البيت:

و آمل أن تقى الأيام نفسىو فى جنبى لها ظفر و ناب

و هذا البيت:

تفدى الفتى فى عيشه ألسنو ما له من حتفه فاد

و هذا البيت:

كل حبس يهون عند الليالىبعد حبس الأرواح فى الأجساد

و هذا البيت:

علامة العز أن حسدت بهإن المعالى قرائن الحسد

و هذا البيت:

ينال الفتى من دهره قدر نفسهو تأتى على قدر الرجال المكايد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۵

و هذا البيت:

يعرفك الاخوان كل بنفسهو خير أخ من عرّفتك الشدائد

و هذا البيت:

ليس الغريب الذى تنأى الديار بهإن الغريب قريب غير مودود

و هذا البيت:

ما الفقر عار و إن كشفت عورتهو إنما العار مال غير محمود

و هذا البيت:

إذا بزّنى مالى عطاء تركتهحميدا و طالبت القواضب بالردّ

و هذا البيت:

إذا الشمس غاضت كل عين صحيحةفكيف بها فى هذه المقل الرّمد

و هذا البيت:

كلّ جواد كاذب فى الوعدو كل خلّ خائن فى الودّ

و هذا البيت:

واها لنفس حبست فى جلدىإن الأسير غرض بالقدّ

و هذا البيت:

و عتاب الزمان مثل عتاب العين تنهى و دمعها بازدياد

و هذا البيت:

و ما هذه الدنيا لنا بمطيعةو ليس لخلق من مداراتها بدّ

و هذا البيت:

و المال أهون مطلبا من أن أرىضرعا أرامى دونه و أدارى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۶

و هذا البيت:

نالوا على قدر الرجاء و إنمايروى على قدر الأوام الصادى

و هذا البيت:

ما أنصف الفاسق فى لحظهلما أرانا عفة العابد

و هذا البيت:

كنت أداوى كبدىلو تركوا لى كبدا

و هذا البيت:

و إن حديث النفس بالشيء دونهرمال النّقا من عالج لشديد

و هذا البيت:

وجدوا و ما جادوا و محتقبللوم من أثرى و لم يجد

و هذا البيت:

أما كان فيكم مجمل أو مجاملإذا لم يكن فيكم أغرّ جواد

و هذا البيت:

ما مقامی علی الجداول أرجوها لنیل و قد رأیت البحارا

و هذا البيت:

إذا قيّد الليل خطو المنیمشی النوم فی مقلة الساهر

و هذا البيت:

لحا اللّه دهرا كثير العدوّحتی الظلام یعادی النهارا

و هذا البيت:

و كيف يتمّ فی بلد صلاةو جلّ بقاعه قبل الفجور

عبقرية الشريف الرضی، ج۱، ص: ۲۷

و هذا البيت:

و ما فخر العفيف الجسم إن فسقت سرائره

و هذا البيت:

من يعشق العزّ لا يرنو لغانیةفی رونق الصفو ما يغنی عن الكدر

و هذا البيت:

و الليث لا ترهب الأقران طلعتهحتی يصمّم منه الناب و الظّفر

و هذا البيت:

ما كل نسل الفتی تزكوا مغارسهقد يفجع العود بالأوراق و الثمر

و هذا البيت:

كم حاطب خانه حبل فأقعصهذلّا و شرّ الحبال الحية الذكر

و هذا البيت:

سالم تصاريف الزمان فمن يرمحرب الزمان يعد قليل الناصر

و هذا البيت:

لو كان حفظ النفس ينفعناكان الطبيب أحق بالعمر

و هذا البيت:

كلّ يوم نذمّ للدهر عهداخان فيه و نشتكی منه غدرا

و هذا البيت:

إنما المرء كالقضيب تراهيكتسی الأخضر الرطيب ليعرى

و هذا البيت:

إذا تناءت بنا قلوبفلا تدانت بنا ديار

و هذا البيت:

و من قيّد الألفاظ عند نزاعهابقيد النهی أغنته عن طلب العذر

عبقرية الشريف الرضی، ج۱، ص: ۲۸

و هذا البيت:

و الحر تنهضه إما شجاعتهإلى الملمّ و إما خشية العار

و هذا البيت:

و هل نافعي يوم أقضى صدّىإذا صاب وادى قومى المطر

و هذا البيت:

و الناس أسد تحامى عن فرائسهاإما عقرت و إما كنت معقورا

و هذا البيت:

و ليس كل ظلام دام غيهبهيسرّ خابطه أن يطلع القمر

و هذا البيت:

ما كل مثمرة تحلو لذائقهاإن السياط لها من مثلها ثمر

و هذا البيت:

و هبك اتقيت السهم من حيث يتقىفمن ليد ترميك من حيث لا تدرى

و هذين البيتين:

يقولون نم فى هدأة الدهر آمنافقلت و من لى أن يهادننى الدهر

هل الحرب إلا ما ترون نقيضةمن العمر أو عدم من المال أو عسر

و هذا البيت:

و هل نافع يوما و جدّك راجلإذا قيل يوم الروع انك فارس

و هذين البيتين:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۹ ان زدتهم فلقد نقصتهمان الزيادة بالشّغا نقص و من المخازى عند لابسها

ما لا توارى الأزر و القمص و هذا البيت:

يقدم الباسل الأبىّ على الحيفو فيه الهوان نكوص

و هذا البيت:

و كيف وفور العرض و المال وافرو من يخزن الأموال ينفق من العرض

و هذا البيت:

و السيف إن مرّ على هامةزوّعها إن هو لم يقطع

و هذا البيت:

ألا ان رمحا لا يصول لنبعةو ان حساما لا يقدّ قطيع

و هذا البيت:

و بعض مقال القائلين مكذبو بعض وداد الاقربين خدوع

و هذا البيت:

ما لبث من يمسى مجازا للردىو معرّج القدر المغذّ المسرع

و هذا البيت:

رأى بارقا لم يرونى و هو حاضرفكيف أرجّى ريّه و هو شاسع

و هذين البيتين:

الناس حولك غربان على جيف‌بله عن المجد إن طاروا و إن وقعوا

فما لنا فيهم ان أقبلوا طمع‌و لا عليهم إذا ما أدبروا جزع

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۰

و هذين البيتين:

يقولون ماش الدهر من حيث ما مشى‌فكيف بماش يستقيم و أظلع

و ما واثق بالدهر إلا كراقدعلى فضل ثوب الظل و الظل يسرع

و هذا البيت:

لقد عاف أمواله من يجودو قد طلّق النفس من يشجع

و هذا البيت:

بالجدّ لا بالمساعى يبلغ الشرف‌تمشى الجدود بأقوام و إن وقفوا

و هذا البيت:

و من يشرب بصاف غير رنق‌يرد يوما برنق غير صافى

و هذا البيت:

كأن الليالى كن آلين حلفةبأن لا يرى فيهن شمل مؤلّف

و هذا البيت:

كيف يرجو الكثير من راضه الشوق‌إلى ان رضى ببذل الطفيف

و هذا البيت:

و ضيوف الهموم مذكنّ لاينزلن إلا على العظيم الشريف

و هذا البيت:

و الحظوظ البلهاء من ذى الليالى‌أنكحت بنت عامر من ثقيف

و هذا البيت:

إنما نلبس الدروع ثقالالرجوع إلى خفاف الشفوف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۱

و هذا البيت:

إذا أنت فتشت القلوب وجدتهاقلوب الاعادى فى جسوم الاصادق

و هذا البيت:

و ما جمعى الأموال إلا غنيمةلمن عاش بعدى و اتهام لرازقى

و هذا البيت:

كم لسان دنا إليك بقلب منافق و هذا البيت:

و لا دار إلا سوف يجلى قطينهاعلى نعق غربان الخطوب النواعق

و هذا البيت:

و ما العيش إلا غمة و ارتياحةو مفترق بعد الدنوّ و ملتقى

و هذا البيت:

أراك تجزع للقوم الذين مضوافهل أمنت على القوم الذين بقوا

و هذا البيت:

و إذا الحليم رمى بسر صديقهعمدا فأولى بالوداد الأحمق

و هذا البيت:

كفى بقوم هجاء أن مادحهميهدى الثناء إلى أعراضهم فرقا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۲

و هذا البيت:

سابق فليس تنال أغراض المنى إلا سباقا و هذا البيت:

و ليس ينال الامر إلا بحازممن القوم أحمى ميسما ثم ألصقا

و هذا البيت:

و لا تزرعوا شوك القتاد فانكمجديرون أن تدموا به و تشاكوا

و هذا البيت:

أبتغى عدل زمان قاسط إنما الناس على دين الملك

و هذا البيت:

و للنفس من عجز الفتى و زماعهزمام إلى ما يشتهى و عقال

و هذا البيت:

و لا تسمعن من حاسد ما يقولهفأكثر أقوال العداة محال

و هذا البيت:

و ليس يأتلف الإحسان فى ملكحتى يؤلّف بين القول و العمل

و هذا البيت:

كل حبيب أبداأيامه قلائل

و هذا البيت:

و من دواء الداء إنما طل كىّ عاجل

و هذا البيت:

و ما طلب البذل من باخلبميسوره غير داء عضال

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۳

و هذا البيت:

و إن طراد النفس عما ترومهأشدّ عناء من طراد قبيل

و هذا البيت:

و أول لؤم المرء لؤم أصولهو أول غدر المرء غدر خليل

و هذا البيت:

ألا إنما الدنيا إذا ما نظرتهابقلبك أمّ للبنين أكول

و هذا البيت:

و إنى رأيت غنىّ الانامإذا لم يكن ذا علاء مقلّا

و هذا البيت:

النفس أدنى عدوّ أنت حاذرهو القلب أعظم ما يبلى به الرجل

و هذه الأبيات:

عادة الزمان فى كل يومبتناءى خل و تبكى طلول

فالليالى عون عليك مع البين كما ساعد الذوابل طول

هى دنيا إن واصلت ذا جفت هذاملالا كأنها عطبول

كلّ باك يبكى عليه و أن طال بقاء و الثاكل المثكول

و هذا البيت:

نؤمل أن نروى من العيش و الردىشروب لأعمار الرجال أكول

و هذا البيت:

و موت الفتى خير له من حياتهإذا جاور الأيام و هو ذليل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۴

و هذا البيت:

و من مات لم يعلم و قد عانق الثرىبكاه خليل أم سلاه خليل

و هذا البيت:

نغالب ثم تغلبنا الليالىو كم يبقى الرمىّ على النبال

و هذا البيت:

سلّى عن العيش أنّا لا ندوم لهو هوّن الموت ما نلقى من العلل

و هذا البيت:

هل نافع نفسك أذللتهاكرامة البيت و عزّ القبيل

و هذا البيت:

و سيان عندى من طوانى على جوىيعذّب قلبى أو طوانى على دخل

و هذا البيت:

و كل فتى لا يطلب المجد أعزلو كل عزيز لا يجود ذليل

و هذا البيت:

و ما المكرهون السمهرية فى الطلىبأشجع ممن يكره المال فى البذل

و هذه الأبيات:

اشتر العزّ بما بيع فما العزّ بغال بالقصار الصّفر إن شئ

ت أو السّمر الطوال ليس بالمغبون عقلامن شرى عزا بمال إنما يدّخر الما

ل لحاجات الرجال و الفتى من جعل الأموال أثمان المعالى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۵

و هذا البيت:

إذا ما نفع الجهل‌فان الضائر العقل

و هذا البيت:

و ما شرر تطاوح عن زنادبمفتقد إذا بقى الضرام

و هذا البيت:

و كيف نوم المرء من تحته‌دون الكرى مضطرب الارقم

و هذا البيت:

إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته‌على مضض لم تبق لحما و لا دما

و هذا البيت:

كالغيث يخلفه الربيع و بعضهم‌كالنار يخلفها الرماد المظلم

و هذا البيت:

هبّوا فقد تتيقظالأجداد للقوم النيام

و هذا البيت:

ما الذنب للمزن جازتنى مواطره‌و إنما الذنب للأرزاق و القسم

و هذا البيت:

إن من خاضت النواظر فيه‌لحر أن تخوضه الأقدام

و هذا البيت:

و ما الليث الا من يدلّ بنفسه‌و يمضى اذا ما بادهته العظائم

و هذا البيت:

لا تصفحنّ عن المليم اذا جنى‌و اذا المضارب أمكنتك فصمّم

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۳۶

و هذا البيت:

لا يذخر الضيغم من قوته‌ما يذخر النمل من المطعم

و هذا البيت:

قد يبلغ الرجل الجبان بماله‌ما ليس يبلغه الشجاع المعدم

و هذا البيت:

قد يقدع المرء و ان كان ابن عمّ‌و يقطع العضو الكريم للألم

و هذا البيت:

و ما كل ليث يغنم القوم زاده‌اذا خفقت تحت الظلام الضراغم

و هذا البيت:

اذا العدوّ عصانى خاف حدّ يدى‌و عرضه آمن من هاجرات فمى

و هذا البيت:

و لو أمن الجبان من المنايالأغمد سيفه البطل المحامى

و هذا البيت:

من أضمر الصد عمن ليس يضمره‌بغيا مشى فى نواحى سره الندم

و هذا البيت:

و غير بعيد منك ناء تزوره‌و غير قريب قاطن لا تؤمّه

و هذا البيت:

أضعت الهوى حفظا لحزمى و إنمايصان الهوى فى قلب من ضاع حزمه

و هذا البيت:

تشفّ خلال المرء لى قبل نطقه‌و قبل سؤالى عنه فى القوم ما اسمه

و هذا البيت:

و لا تيأسن من عفو حرّ فإنماتحلمه باق اذا ضاع حلمه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۷

و هذا البيت:

فلا عار أن تستنجد الكأس راحةأضرّ بها حمل الجزار المصمّم

و هذا البيت:

تمضى الزمان و لا نحس كأنه‌ريح تمر و لا يشمّ نسيمها

و هذا البيت:

كم ذاهب أبكى النواظر مدةو مضى و طاب لمقلة تهويمها

و هذا البيت:

و نلقى قبل لقيان المنايارماح الداء تطعن فى الجسوم

و هذا البيت:

فليت كريم قوم نال عرضىو لم يدنس بحمد من لئيم

و هذا البيت:

تملى المقادير أعمارا و ننسخهاو يضرب الدهر أياما بأيام

و هذا البيت:

نصف عيش المرء نوم و الذىيعقل العاقل منه كالحلم

و هذين البيتين:

و الحرّ من حذر الهوان يزايل الأمر الجسيما

و الضيم أروح منه مطرورالظّبا بلغ الصميما

و هذا البيت:

و خاطر على الجلّى خطار ابن حرةو إن زاحم الأمر العظيم فزاحم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۸

و هذا البيت:

لا تصحبنّ دهرك إلا خائفافراق إلف و نبوّا عن وطن

و هذين البيتين:

و منظر كان بالسّراء يضحكنىيا قرب ما عاد بالضراء يبكينى

هيهات أغتر بالسلطان ثانيةقد ضل ولّاج أبواب السلاطين

و هذا البيت:

لا تأمننّ عدوا لان جانبهخشونة الصّل عقبى ذلك اللين

و هذا البيت:

لا تخلدنّ إلى أرض تهون بهابالدار دار و بالجيران جيران

و هذا البيت:

إذا الفتى كان فى أفعاله شوهلم يغن أن قيل إن الوجه حسان

و هذا البيت:

يا قوم إن طويل الحلم مفسدةو ربما ضرّ إبقاء و إحسان

و هذا البيت:

ما ينفع الماضين أن بقيت لهمخطط معمّرة بعمر فان

و هذا البيت:

و ما خير عين خبا نورهاو يمنى يد جذّ منها البنان

و هذا البيت:

و ما كل أصل كريم العروق تأبى على الغمز عيدانه

و هذا البيت:

إذا منزل راب سكانهمن الأرض حرّم إيطانه

و هذا البيت:

و ما الحب إلا فرقة بعد ألفةو إلا حذار بعد طول أمان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۹

و هذا البيت:

إذا المرء لم يحفظ ذماما لقومهفأحج به أن لا يفى بضمان

و هذا البيت:

تعرّفنى بأنفسها الليالىو آنف أن أعرفها مكانى

و هذه الأبيات:

فكم صاحب تدمى علىّ بنانهو يظهر أن العز لثم بنانى

يضم حشا البغضاء عند تغيّبىو يجلو جبين الود حين يرانى

مسحت بحلمى ضغنه عن جنانهفلما أبى مسّحته بسنانى

سبقت برميى قلبه فأصبتهو لو لم أصبه عاجلا لرمانى

و هذين البيتين:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلهالعظيم ما ألقى من الخلّان

و إذا أمنت من الزمان فلا تكنإلا على حذر من الإخوان

و هذا البيت:

و ما تنفع المرء الشّمال وحيدةإذا فارقتها بالمنون يمين

و هذا البيت:

وسعت أيامى و لم تسعنىأفضل عنها و تضيق عنى

و هذا البيت:

و ليس على زهر الكواكب سبّةإذا غضّ من أنوارها زبرقانها

و هذا البيت:

أكرر فى الإخوان عينا صحيحةعلى أعين مرضى من الشّنئان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۰

و هذا البيت:

لا تجعلنّ دليل المرء صورتهكم مخبر سمج عن منظر حسن

و هذا البيت:

و ربّ وفاح الوجه يحمل كفّهأنامل لم يعرق بهنّ عنان

و هذين البيتين:

و شرّ الأذى ما جاء من غير حسبةو كيد المبادى دون كيد المداهن

و إنّ بلوغ الخوف من قلب خائفلدون بلوغ الخوف من قلب آمن

و هذين البيتين:

قصور الجد مع طول المساعىو قول الناس لم ينجح فلان

أحبّ إلىّ من سعى هجينو إن بلغ العلا جد هجان

و هذين البيتين:

و من عجب صدود الحظ عناإلى المتعممين على الخزايا

أسفّ بمن يطير الى المعالىو طار بمن يسفّ الى الدنايا

و هذين البيتين:

و تفرّق البعداء بعد مودةصعب فكيف تفرّق القرباء

و خلائق الدنيا خلائق مومسللمنع آونة و للأعطاء

و هذا البيت:

اذا ما الحرّ أجدب فى زمانفعفته له زاد و ماء

و هذا البيت:

هيهات يا دنيا و برقك صادقأرجو، فكيف اذا و برقك كاذب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۱

و هذا البيت:

و أعظم ما ألاقى أن دهرىيعدّ محاسنى لى من ذنوبى

و هذا البيت:

و للحلم أوقات و للجهل مثلهاو لكن أوقاتى الى الحلم أقرب

و هذين البيتين:

تجاذبنى يد الأيام نفسىو يوشك أن يكون لها الغلاب

و تغدر بى الاقارب و الادانىفلا عجب اذا غدر الصّحاب

و هذين البيتين:

فمالى طول الدهر أمشى كأننىلفضلى فى هذا الزمان غريب

اذا قلت قد علقت كفى بصاحبتعود عواد بيننا و خطوب

فما رأيكم فيما سمعتم يا أدباء بغداد! ألا ترون أن الثروة الشعرية كانت خليقة بعناية الدارسين و الناقدين؟ ألا ترون أن الشريف كان أهلا لأن يتعقبه أحد النقاد فيدرس ما فى شعره من الحكم و الامثال ثم يبين ما فيها من المبتكر و المنقول؟ أما كان أهلا لان يشغل به النقاد فيقولون انه ابتكر كيت أو سرق زيت؟

لقد رأيناهم يتعقبون المتنبى فيردون حكمه و أمثاله الى الادب المأثور عن قدماء اليونان فما بالهم سكتوا عن الرضى ذلك السكوت؟ أتريدون الحق أيها الادباء؟ الحق ان النقاد شغلوا أنفسهم بالمتنبى طاعة لبعض الرؤساء، و لم يشغلوا انفسهم به حبا فى الوقوف على اصائل المعانى. ان حقد الصاحب بن عباد على المتنبى هو الذى وجّه الشعراء إلى نقد شعره، و كان ذلك النقد على ما فيه من ظلام الهوى و الغرض أساس الشهرة التى تمتع بها المتنبى فى الحياة و بعد الممات، و لو لا التحامل على المتنبى

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۴۲

فى الحياة و بعد الممات، و لو لا التحامل على المتنبى لما وجد له أنصار يرفعون اسمه فوق الاسماء.

و قد حرم الشريف الرضى أسباب الشهرة من هذه الناحية، فقد حمله التجمل و التعفف على هجر ابواب الملوك و الوزراء، فلم يكن يمدح حين يمدح الا عن حب او مداراة، و لم يره أحد يزاحم الشعراء و الادباء على أبواب السلاطين فكان من أثر ذلك أن قلّ حاسدوه و الحاقدون عليه، فلم يشق فى ثلبه قلم و لا لسان، و لم يكن الادب فى تلك العصور يعرف الحياة الا بفضل المماراة و الضجيج.

أ فلا ترون معى أيها السادة، أن الادب كان حظه حظ التاريخ لا لا يرفع فيه علم الا بفضل الدماء؟

لقد ولى مصر فى العهد الاسلامى كثير من المتحكمين، و كان كافور أقربهم الى الاذهان لانه أزال الغشاوة عن أمانى المتنبى، و تولى الوزارة فى بغداد كثير من الرجال، و كان أقربهم الى الاذهان اقطاب البرامكة لان سلطانهم ختم بالفجائع.

فيا ليت شعرى متى يجىء العهد الذهبى الذى تسمو فيه الآراء بفضل ما فيها من قوة الصدق، لا بفضل من يحرسها من الجنود.

ان هذه البلية لا تزال تسيطر على العقول و الأذواق، ففى عصرنا الحاضر نجد لأهل الأدب وسائل و أساليب لا تعرف المنطق و لا العدل، و تلك الوسائل و الاساليب ستصنع فى الادب الحديث أمثال ما صنعت الاساليب القديمة فى الادب القديم، و قد شكا النقاد فى فرنسا هذه البلية،

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۴۳

إذ تبين لهم أن الكتاب و النقاد انقسموا إلى جماعات تتقارض التلطف و الثناء، و هم يسمّون ذلك بالكمارادرىCamaraderie و تلك الكمارادرى معروفة فى مصر و لعلها أيضا معروفة فى الشام و العراق.

و قد شكوت هذه البلية، و اتفق لى أن أكون من ضحاياها فى كثير من الأحيان، و ما شكوته أنا شكاه سواى، فالنقاد اليوم يعرفون أصدقاءهم قبل سائر الناس، و الجرائد و المجلات قد تعامل الكتاب و الشعراء و المؤلفين وفقا لصلاتهم بمختلف الاحزاب.

أما بعد فقد بينت لكم بعض الاسباب التى قضت على الشريف الرضى بالخمول، فهل تحبون أن أحدثكم كيف عرفت ذلك الشاعر

العظيم؟

لا تظنوا أنى تلقيت الاعجاب به عن الاساتذة و الادباء، فقد كان أهل الأدب فى عهد حداثتى لا يختلفون إلا حول أبى تمام و البحترى و المتنبى من بين القدماء، و شوقى و حافظ من المحدثين، ثم اتفق ان شرعت فى سنة ۱۹۱۷ أؤلف كتاب «مدامع العشاق» فحملنى ذلك على استقراء المأثور من الشعر الوجدانى فى مختلف العصور، و كانت فرصة ذهبية عرفت فيها الشريف الرضى شاعر القلب و الوجدان.

و منذ ذلك اليوم و أنا أحدث الناس عن القائد المعروف لا الجندى المجهول، حتى أصبح له فى مصر أشياع يقدمونه على سائر الشعراء، و أصبحتم تسمعون رنين شعره من حنجرة «أم كلثوم».

و ها نحن أولاء نعود فندعو أهل بغداد إلى إحياء ذكراه، ها نحن أولاء نعود فنتحدث عنه فى المدينة السحرية التى عرف فيها كيف تندى عبقرية الشريف الرضى ؛ ج ۱ ؛ ص۴۴

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۴۴

الأزهار، و كيف تقعقع الرعود، و كيف تصطخب القلوب ها نحن أولاء نتحدث عنه فى خشوع و قنوت، كما يتحدث المؤمن و هو فى حرم المحراب.

فيا أيها الشريف: أنا فى وطنك و فى ضيافتك، فارفع الحجب عن أسرار قلبك و سرائر عبقريتك، فبى إلى فهم روحك ظمأ لا ترويه دجلة، و لا يرويه النيل. و سلام عليك بين المصطفين الابرار من أقطاب الشعراء ...

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۴۵

## الشاعر المثقف

أيها السادة:

حديث الليلة عن ثقافة الشريف الرضى و بصره بالبلاغة و إحساسه قوة الكلام البليغ.

و لا يمكن تصور هذا الجانب من حياة الشريف إلا بتصور ما كانت عليه الحياة العقلية فى القرن الرابع، ذلك العهد الذى رأى كيف تتصاول العقول، و كيف تصطرع الأقلام، و كيف يكون الحول و الطول مقرونين بسلاح المنطق و براعة البيان.

ففى ذلك العصر عرفت اللغة العربية نهضة أدبية لا- تزال تسيطر على الأقلام و العقول إلى اليوم، فى ذلك العصر نبغ أبو الحسن الجرجانى صاحب الوساطة بين المتنبى و خصومه. و فى ذلك العصر نبغ أبو بكر الباقلّانى صاحب إعجاز القرآن. و فيه نبغ أبو القاسم الآمدى صاحب الموازنة بين الطائيين أبى تمام و البحترى. و فيه ظهر أبو على الحاتمى الذى سنّ المذاهب للهجوم على المتنبى. و فيه تفجرت فصاحة أبى هلال العسكرى صاحب الصناعتين.

و فى ذلك العصر ظهر إخوان الصفاء الذين دانوا اللغة العربية برسائلهم العميقة التى وعت معارف العرب و الفرس و اليونان. و فيه نبغ أبو حيان التوحيدى و ابن مسكويه. و فيه عرف النثر الفنى أقطابا عظاما لا يزالون أعلام الفصاحة و فرسان البيان، و كيف تنسى لغة العرب آثار ابن العميد و ابن عباد و الهمذانى و الخوارزمى و التنوخى و ابن و شمكير و ابن شهيد.

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۴۶

و من هذه الإشارات ترون القرن الرابع تميز بمزايا ثلاث: النقد الادبى و الجدل العقلى، و النثر الفنى، و هى مزايا كانت تفترق ما شاء لها الزمن الجائر، فيرى بعضها فى الشام، و بعضها فى مصر، و بعضها فى الاندلس، و لكنها كانت تجتمع فى بغداد، و كانت بغداد وطن الشريف كما تعلمون.

و صورة بغداد فى القرن الرابع تتمثل فى قول الصاحب بن عباد فى خطابه إلى ابن العميد: «بغداد فى البلاد، كالاستاذ فى العباد» و

تتمثل ايضا فى الجزع على فراقها، الجزع الذى أحسه أبو العلاء و أبو العلاء كما تعرفون كان يرى الدنيا بأذنيه لا بعينيه، فلما قدم بغداد رأت أذناه ما لم تريا من قبل، و صارت المجالس و المساجد هى الزهر و الماء فى إحساس ذلك الأديب الفيلسوف.

و من ثقافة القرن الرابع و معارف بغداد تكونت عقلية أبى العلاء الذى دان الأدب برسالة الغفران و بقصائده اللزوميات.

و قد شاءت الظروف أن يعيش الشريف الرضى فى القرن الرابع، و بعقل القرن الرابع، و شاءت الظروف أيضا أن يكون من أسرة لها فى العلم و الأدب ماض جميل، بل و شاءت الظروف أن يكون له أخ من الأئمة فى العلوم العقلية و النقلية، ثم قضت بأن يكون الشريف الرضى نقيب الاشراف فى زمن لم يكن فيه للاشراف عرش و لا تاج، و إنما كان لهم مجد العلم و الادب و البيان.

و قد وفى الشريف الرضى لعصره و اسرته أصدق الوفاء، فأقبل على الحياة العلمية و الأدبية إقبال الرجال، و شارك فى التأليف مشاركة الفحول، فألف كتاب «حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» و كتاب:

«مجازات الآثار النبوية» و كتاب: «تلخيص البيان عن مجازات القرآن»

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۷

و كتاب: «الخصائص» و «أخبار قضاة بغداد».

و ما أزعم أنى اطلعت على جميع هذه المؤلفات، فقد ضاع أكثرها مع الأسف، و إنما اطلعت على مجازات الآثار النبوية، و هو كتاب ممتع، يمثل ثقافة الشريف أصدق تمثيل، و يدل على بصره باللغة و الادب و مذاهب البيان.

و لم تكن ثقافة الشريف مقصورة على الجوانب الجافية التى وقف عندها بعض الاعلام فى ذلك الزمان، و إنما رق الشريف و ظرف، فمشى به ذوقه اللطيف إلى دراسة شعر ابن حجاج أظرف شعراء القرن الرابع و أبرعهم فى وصف اللهو و المجون، و قد تخير الشريف طائفة من شعره سماها: (الحسن من شعر الحسين) و لعله بهذه التسمية كان صاحب الفضل على أبى العلاء الذى سمى كتابه عن المتنبى: (معجز أحمد) و كتابه عن البحترى: (عبث الوليد) و كتابه عن أبى تمام: (ذكرى حبيب).

و لم تكن ثقافة الشريف موقوفة على ما وعت الكتب و المصنفات، و إنما امتد بصره فدرس الدنيا و خبر الناس، و ساقه إلى ذلك أسباب خطيرة ترجع فى جملتها إلى اثنتين: الاول تطلعه إلى الخلافة و حرصه على الاتصال بأقطاب الزعماء فى الحواضر الاسلامية، و الثانى تشوفه الى ما أجنّ الوجود من غرائب الصباحة، و عجائب الجمال، و سترون فى الليالى المقبلات كيف كان الشريف يعيش موزّع القلب و العقل بين الحب و بين المجد، و كيف كان فريسة للدسائس فى عالم المجد و عالم الوجدان.

فالشريف الرضى أيها السادة عاش شعره كله، كما يعبر الفرنسيون، و هو لم يصف أزمات الحياة كما يفعل اللاهون و العابثون، و إنما وصف حياة رآها بعينيه، و أحسها بقلبه، و ذاق من شهدها و صابها ما يذوق أحرار الرجال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۸

و نحن بهذه الاحكام لا نتعصب لشاعر أحببناه، و إنما نطوف حول نفس روحانية لم يعرف نظيرها العلم، و لم يشهد مثيلها الخيال.

نطوف حول نفس مظلومة مهيضة كافحت فى الحياة اصدق كفاح، و ناضلت فى سبيل المجد أشرف نضال.

لقد كان الناس نى عهد الشريف يتفقهون ليعيشوا، اما هو فكان يتفقه ليسود.

كان الشعراء فى عهد الشريف ينظمون الشعر ليحظوا بأعطيات الخلفاء، أما هو فكان ينظم الشعر ليزلزل الرواسى من عروش الخلفاء.

كان الشعراء يتغزلون لاهين لاعبين، أما الشريف فكان له فى كل أرض صبابة، و كان له فى كل بقعة غرام ما حق مبيد.

و كان ذلك مزاجا بين طغيان العقل و عدوان القلب، كان مزاجا بين العقل المثقف و القلب الحساس.

و جملة القول ان الرضى لم يكن من طراز شعراء الجاهلية، الشعراء العوام الذين لم يعرفوا غير ما كان يعرف سكان البيداء، و لم يكن من طراز شعراء العصر الاموى الذين وقفوا عند المعارف الجاهلية بعد أن أنارتها بعض المعارف الدينية، و لم يكن من طراز الشعراء الذين شهدوا صباح العصر العباسى، اولئك الشعراء الذين وقفوا عند عربدة الكؤوس الكؤوس، و لم يعرفوا الخلفاء إلا فى طلب الرزق

الحرام او الحلال، و إنما كان شاعرا مثقفا يدرك تمام الادراك كيف تصطرع العقول و المذاهب و الاهواء، و يفهم ان الدنيا فى عصره نهب مقسّم بين الديلم و أحفاد بنى العباس، و يتمنى لو أقام على شواطىء دجلة حاضرة تساوى الحاضرة التى اقامها الفاطميون على شواطىء النيل.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۹

فالشريف الرضى كان يرى الدنيا بعين الرجل المثقف، المثقف الشريف لا المثقف الصّعلوك، و كانت أحاسيسه فى دنياه لا تقدّر بالاوهام، و إنما كان ينصب لها دقيق الموازين، و يسعى فى تحقيقها سعى الفحول.

كان الشريف فى حرب شعواء بين القلب و العقل، و كان يطمح فى أن يجمع لنفسه جميع أقطار المجد، فيكون من أئمة الفقهاء، و أقطاب الشعراء، و أعيان الخلفاء.

و قد ضاعت أمانيه ضياع الزهر فى الوادى الجديب، و لم يبق منها الإمامة فى الشعر و البيان.

أيها السادة:

قد تقولون: و أين الشواهد على بصره بالمذاهب اللغوية و الادبية؟

إن قلتم ذلك فنحن نحدثكم عن فهمه لأصول الكلام البليغ، و حجتنا فى ذلك ما وصف به شعره و ما تحدث به عن البلاغة و هو يتحدث عن اللغويين و الشعراء.

و أول ما ننص عليه: إحساس الشريف بالصلة بين المعانى و بين الأوزان، يدل على ذلك ما جاء فى ص ۹۴۵ من الديوان، فقد أرسل اليه أبو إسحاق الصابى قصيدة مدح نثبت منها هذا المطلع:

أبا كلّ شىء قيل فى وصفه حسنإلى ذاك ينحو من كناك أبا الحسن

قال جامع الديوان: «فأجابه عن هذه القصيدة و جعل الجواب على رويّها دون وزنها، لأن ذلك الوزن المقيد لا يجىء فى الكلام إلا مقلقلا و لا النظم إلا مختلّا».

فالشريف كان يشعر بالصلة بين الوزن و بين المعنى، و هذا الاتجاه كان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۰

معروفا عند أدباء القرن الرابع، فقد حدثنا الصاحب بن عباد انه لم يجد فيمن صحبهم من الادباء من يفهم الشعر كما كان يفهمه أبو الفضل ابن العميد «فإنه كان يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف و الكلمات، و لا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير الوزن و القافية» و حدثنا ان ابن العميد كان يقول «إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب ان يوضع الشعر و يبتدأ النسج لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده، و المعنى الذى اعتمده، و ينظر فى أى الاوزان يكون أحسن استمرارا و مع أى القوافى يحصل أجمل إطراد» فما كان ابن العميد يراه من الوجهة النظرية كان الشريف يحققه من الوجهة العملية، و ما كان الشريف شاعرا فحسب، و إنما كان كذلك من أقطاب الناقدين.

و يتصل بهذا حرصه على تحبير القصائد، و قد كان ذلك الحرص يوقعه أحيانا فى المضحكات، فقد احتفل بنظم قصيدة يهنىء بها أخاه المرتضى بمولود، و لكن شاء الحظ أن تلد امرأة أخيه بنتا، فصرف القصيدة إلى غيره من الاصدقاء. و قد وقع له هذا الحادث المضحك مرتين .

و قيمة هذا الشاهد ترجع إلى دلالته على احتفال الشريف بقرض القصائد، فقد كان يتخير المناسبات و يستعد لها أتم استعداد.

و هناك وجه آخر من وجوه البصر بالتاريخ الادبى، فقد تفرد بميزة لم نجدها إلا قليلا عند غيره من الشعراء، و تلك عنايته بتاريخ قصائده، فهو الشاعر الوحيد الذى نجد جميع قصائده مؤرخة من بين سائر القدماء، و لهذا التاريخ نفع من وجهتين: فهو أو لا شاهد على شعور الشريف بأن

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۱

البلاغة من المواد الوصفية فى حياة المجتمع، و انها لذلك خليقة بالتاريخ و هو ثانيا يسعف من يهمهم ان يعرفوا كيف تطورت عقلية الشاعر من حال إلى حال.

و لقد تظنون أن هذا العمل النافع قام به جامع الديوان، و لم يقم به الشريف و نجيب بأن ديوان الشريف رتّب بعنايته و هو حيّ، و قد طلبت منه «تقية» بنت سيف الدولة نسخة و هى بمصر، و طلبه كذلك الصاحب بن عباد، و لا يطلب الديوان إلا و هو عند صاحبه حاضر عتيد.

و قد كان الشريف ينظر إلى الشعر نظر الفنّان، فنراه يقول فى وصف قصائده الجياد:

منتصبات كالقنا لا تريعيّا من القول و لا أفنا

لا يفضل المعنى على لفظهشيئا و لا اللفظ على المعنى

فمثل الشريف فى نظم شعره مثل الصيدلى البارع الذى يحسن تركيب الدواء، فهو شخص مسئول يركّب الدواء بمقادير معينة محددة يؤخذ بعضها بالقطارة و بعضها بالميزان، و هو يعلم ان الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضارّا أو غير مفيد و كان يشعر بأن اهم عناصر البلاغة قوة الذاتية، نعرف ذلك من كلامه فى تجريح من يسرقون شعره و ينتحلونه فى بعض البلاد، فقد هددهم بالفضيحة و أعلنهم ان شعره سينمّ عليه و سيبوؤن بالخيبة و الاخفاق، و ذلك إذ يقول:

ألا من عذيرى من رجال تواعدوالحربى من رامى عقوق و رامح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۲ و غرهم منى اصطبار على الأذىو قد يكظم المرء الأذى غير صافح

فما الجارم الجانى عقوق بسالمو لا الماطل اللّاوى ديونى برابح

أغار على ذود من الشعر آمنتقادم عندى من نتاج القرائح

فياليتهم أدّوه فى الحىّ خالصاو لم يخلطوه بالرذايا الطلائح

و إنك لو موّهت كل هجينة على ناظر ما عدّدت فى الصرائح

أرى كل يوم و العجائب جمةعلى وبر الجربى وسوم الصحائح

إذا طاردوها خالفت برقابهارجوعا إلى أوطانها و المسارح

و إن أوردوها غير مائى حايدتحياد عيوف ينكر الماء قامح

إذا انجفلت فى غارة بتّ ناظراًأراقب منها روحة فى الروائح

كأن بنى غبراء اذ ينهبونهاأحالوا على مال بذى الدوح سارح

يرجّون منها و الأمانىّ ضلةرجاء نتاج الحمل من غير لاقح

أباغث أضرتها السفاهة فاغتدتتخطّف هذا القول خطف الجوارح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۳ هبوها اليكم من يدىّ منيحةلقد آن يا للقوم ردّ المنائح

دعوا و ردماء لستم من حلاله و حلوا الروابى قبل سيل الاباطح

و لا تستهبّوا العاصفات و أصلكمنجيل رمت فيه الليالى بقادح

فما أنتم من مالىء ذلك الحباو لا فيكم أكفاء تلك المناكح

و لم تحسنوا رعى السوامخ قبلهافكيف تعاطيتم ركوب الجوامح

و لا تطلبوها سمعة فى معرّةتحدّث عنكم كل غاد و رائح

خمول الفتى خير من الذكر بالخناو جر ذيول المنديات الفواضح

فهذا الشاعر يصور قصائده المسروقة حين تضاف الى قصائد غيره بصور الصحاح من الابل و الخيل حين تضاف الى المراض، و يتمثلها تلوى رقابها نزاعا الى وطنها الاصيل، و تأبى ورود الماء الغريب ثم يرمى سارقى شعره بأنهم ليسوا أكفاء للزواج من تلك القصائد، و انهم لم يحسنوا رعى البقل فكيف يخاطرون بركوب الجياد الجوامح؟

و وصف قصائده المسروقة فى مكان آخر فقال:

تصغى لها الأسماع و القلوبمثل السهام كلها مصيب

لطيمة نمّ عليها الطيّب تودعها الأردان و الجيوب

يتعب ذو البراعة الاديبو يغنم الهلباجة المعيب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۴ فى كل هجمة تلوب هاج عليها الكلأ الرطيب

يطلبن أرضى و الهوى طلوبلا أمم منى و لا قريب

عند الأعادى و سمها غريبيرصدهن الحارب المريب

فأنتم ترون أن الشريف يؤمن بأن سرقة شعره عناء فى عناء و هى نظرة لا تقع إلا من رجل مثقّف العقل، و هى دليل على قوة الذاتية التى تعدّ من أهم العناصر فى مقومات الآداب و الفنون، فالشاعر الوسط، أو الكاتب الوسط، أو الموسيقار الوسط، تضاف آثاره إلى آثار غيره فلا يحس أحد أنها نقلت من أرض إلى أرض. و من الأدباء و الفنانين من تصبح آثارهم كالدنانير التى يتميز بها جيل عن جيل، و لا يمكن تزييفها إلا بجهد عنيف، و أنتم تجدون شواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم، فشوقى ينمّ شعره عليه، و البارودى ينمّ شعره عليه، و كذلك ينمّ الأسلوب عن أمثال إبراهيم المازنى و طه حسين، و لو نشروا رسائلهم بدون إمضاء.

و الشريف الرضى كان أعجوبة الأعاجيب فى هذا الباب، فلا هو من من طراز أبى نواس و لا مسلم بن الوليد و لا أبى تمام و لا البحترى و لا المتنبى و إنما هو الشريف صاحب الحجازيات.

و إحساس الشريف بخطر البلاغة قاده إلى الاشادة بقوة القلم و ما له من السيطرة على الوجود. و الحديث عن قوة القلم معروف، فقد أقسم اللّه به فى كتابه الكريم، و اهتم بوصفه كثير من الشعراء و الكتاب، كما ترون فى الفقرات التى أثبتها الثعالبى فى سحر البلاغة و نقلها الحصرى فى زهر

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۵

الآداب، و لكن حديث الشريف عن القلم له دلالة على اتجاهاته الذوقية و النفسية، فهو يتحدث عنه حديث المتيم المشتاق، و يكاد يتغزل فيه و هو يجول فوق القراطيس. و أى سحر فات الشريف و هو يصف قلم الصاحب بن عباد:

لكك القلم الماضى الذى قرنتهبجرى العوالى كان أجرى و أجودا

إذا انسلّ من عقد البنان حسبتهيحوك على القرطاس بردا معمّدا

يغازل منه الخطّ عينا كحيلةإذا عاد يوما ناظر الرمح أرمدا

و إن مجّ نصل من دم الضّرب أحمرا أراق دما من مقتل الخطب أسودا

إذا استرعفته همة منك غادرت قوادمه تجرى و عيدا و موعدا

أو حين يقول:

لكك القلم الجوّال إذ لا مثقّفيجول و لا عضب تهاب مواقعه

سواء عشيّته النّقس رهبةو ذو لهذم غشّى من الدم رادعه

يلجلج من فوق الطروس لسانهو ليس يؤدى ما تقول مسامعه

و ينطق بالأسرار حتى تظنهحواها و صفر من ضمير أضالعه

إذا اسودّ خطب دونه و هو أبيض‌يسوّد و ابيضت عليه مطالعه

أو حين يقول:

له قلم إن جرى غربه‌أمنّا القنا و خشينا اليراعا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۶

و الشريف حين يمنح القلم هذه الأوصاف إنما يفعل ذلك و هو يتمثل ما صنعت الأقلام فى بناء الممالك و الشعوب، و يتصور جناياتها على التيجان و العروش.

و هو أيضا يشعر بمعنى الوصف و معنى البيان، فليست الأوصاف عنده تهاويل و تزاويق، و إنما هى استقراء و استقصاء، و ليس البيان فى فهمه ضربا من المحاجاة أو التنميق، و إنما هو كشف و جلاء، نعرف هذا من قوله فى خطابه خاله أبى الحسين:

يشيّعنى بوصفك كل نطق‌و يعرفنى بمدحك من رآنى

و ليس الوصف إلا بالتناهى‌و ليس القول إلا بالبيان

و هو بهذا يثور على التقاليد الأدبية التى شاعت فى القرن الرابع، و كانت تعتمد على البهرج و البريق.

و كان مع فهمه لقيمة البيان ذلك الفهم يدرك تمام الإدراك أن البيان يوجب على طالبه أن يكدّ خاطره فى تصيّد كرائم المعانى و تحيّر الألفاظ الصّحاح التى لا يصلح بغيرها أداء، نفهم ذلك من قوله عتاب الخليفة الطائع للّه:

فالآن منك اليأس ينقع غلّتى و اليأس يقطع غلّة الظمآن

فاذهب كما ذهب الغمام رجوته‌فطوى البروق و ضنّ بالتّهتان

أو بعد أن أدمى مديحك خاطرى‌بصقال لفظ أو طلاب معانى

و فى هذا المعنى نفسه يقول فى مدح أبيه:

قدها فغرّتها من الكلم الجنى‌و حجولها من صنعة و معانى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۷ هى نطفة رقرقتها من خاطرى‌بيضاء تنقع غلّة الظمآن

و كذلك يقول فى آخر موطن:

و محوكة كالدرع أحكم سردهاصنع فأفصح فى الزمان الأعجم

و فى هذا المعنى يقول فى العتاب:

جاءتكم أسلا مشرّعةمتوقّعا فيكم تقصّفها

قد بات فيها قائل صنع‌يحمى لها ذمها و يرهفها

أعزز علىّ بأن يكون لكم‌بالأمس ثقّفها مثقّفها

و يقول فى وصف نظام قصائده و هو يمدح أحد وزراء بهاء الدولة:

و عندى لك الغرّ التى لا نظامهايهى أبدا و لا يبوخ شهابها

و عندى للأعداء فيك أوابد لعاب الأفاعى القاتلات لعابها

و فى قوة نظام القصائد يقول أيضا و هو يمدح أباه:

تصون مناقبك الشاردات أن تتخطى إليها العيوب

إذا نثرتها شفاه الرواة راقك منها النظام العجيب

و فى سلاسة النظام يقول:

برانى الدهر سهما ثم ولّى‌فجردنى من الريش اللؤام

و ها أنذا أبثّك كل بيترقيق النسج رقراق النظام

و فى رنين شعره يقول:

منحتك من منطقى تحفةرأيت بها فرصة تستلب

تصفّقها بالنشيد الرواةكما صفّق الماء بنت العنب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۸

و يصف جلجلة شعره فيقول:

أنا القائل المرموق من كل ناظرإذا صلصلت للسامعين غرائبى

و يصف قدرته على إيذاء الأعداء بالشعر فيقول:

فلا ترهبونى بالرماح سفاهةفعيدان أوطانى قنا و صعاد

و لا توعدونى بالصوارم ضلّةفبينى و بين المشرفىّ ولاد

سأمضغ بالأقوال أعراض قومكمو للقول أنياب لدىّ حداد

ترى للقوافى و السماء جليةعليكم بروق جمّة و عاد

و يصف نفسه بالسيطرة على الالفاظ فيقول:

ألا من كنت شاعرهفإن المجد شاعره

و إن اللفظ مطروحعلى فكرى جواهره

فما رأيكم فيما سمعتم، يا أدباء بغداد؟

أترون كيف يتحدث عن صقال الألفاظ و طلاب المعانى، و كيف يصف نفسه مرات بأنه صنع، و يصف قصائده بأنها كمشرعات الأسل و محكمات الدروع؟

أرأيتم كيف يبدىء و يعيد فى وصف ما تمتاز به قصائده من إحكام النظام، و كيف تجلجل جلجلة الرعود و البروق؟

إن هذا الشاعر يقفنا أمام حقيقتين: الاولى ان البلاغة بريئة من البهرج و التكلف، و الثانية ان البلاغة لا تكون دائما من عفو الطبع، و إنما يصل إليها الرجال بالجهاد و الجلاد فى تخير الألفاظ و تصيّد المعانى، و هذا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۹

و لا ريب مطمح الشاعر المثقف الذى يعرف أنه مهدد بالشهرة التى غنمها المتنبى و الشهرة التى سيغنمها أبو العلاء.

و عقل القرن الرابع هو الذى أورد شاعرنا هذه الموارد، فقد كان يرى العلم و الفلسفة يحيطان به من كل جانب، و كان يرى الناس لا يقنعون بالمواهب الفطرية التى كانت تغنى فى عصر امرىء القيس أو عمر ابن أبى ربيعة أو مسلم ابن الوليد، و كان يرى الادباء يتغنّون بفنون أبى تمام و البحترى و ابن الرومى، و كان يتطلع إلى أن تكون له منزلة فى صدور الادباء المتفلسفين أمثال التوحيدى و الصاحب بن عباد.

و سترون فى المحاضرة المقبلة أن الشريف الرضى لم يكن يعيش وحده، و إنما كان يعيش فى زمن أكثر علمائه شعراء، فهو يقارعهم مقارعة الشاعر المثقف، و يلقاهم بعزائم الفحول.

ننتقل إلى فن آخر يظهر فيه حرصه على الكلام البليغ، فنرى كيف كان يدرك أن محاسن الرجال لا تتم بغير العقل و البيان.

كتب إليه الصابى يشكو زمنة عرضت له، فقال الشريف يجيبه من قصيد طويل:

لئن نال قبضا من بنانك حادثلقد عاضنا منك انبساط جنان

و إن بزّ من ذاك الجناح مطارهفربّ مقال منك ذى طيران

و إن أقعدتك النائبات فطالماسر موقرا من مجدك الملوان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۰ و إن هدمت منك الخطوب بمرّهافثمّ لسان للمناقب بانى

مآثر تبقى ما رأى الشمس ناظرو ما سمعت من سامع أذنان

و موسوعة مقطوعة العقل لم تزلشوارد قد بالغن فى الجولان

و ما زلّ منك الرأى و العزم و الحجافنأسى إذا ما زلّت القدمان

و هو فى هذه الأبيات يرى ان مرض الصابى غير ضائر ما دام له قلب و لسان. و نصّه على بلاغة الصابى و هو يعزيه فى علته يشرح لكم كيف كان يقدر نعمة الكلام البليغ.

و لما مات الصابى رثاه الشريف أكثر من مرة، و كان كلما رثاه نص على قلمه و بلاغته، كأن يقول:

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيةأنّى و مثلك معوز الميلاد

من للبلاغة و الفصاحة إن همىذاك الغمام و عبّ ذاك الوادى

من للملوك يحزّ فى أعدائهابظبا من القول البليغ حداد

من للممالك لا يزال يلمّهابسداد أمر ضائع و سداد

من للجحافل يسترل رماحهاو يردّ رعلتها بغير جلاد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۱ من للموارق يستردّ قلوبهابزلازل الإبراق و الإرعاد

و صحائف فيها الأراقم كمّنمرهوبة الاصدار و الايراد

تدمى طوائعها إذا استعرضتهامن شدة التحذير و الإبعاد

حمر على نظر العدوّ كأنمابدم يخطّ بهن لا بمداد

يقدمن إقدام الجيوش و باطلأن ينهزمن هزائم الأجداد

فقر بها تمسى الملوك فقيرةأبدا إلى مبدى لها و معاد

و تكون سوطا للحرون إذا ونىو عنان عنق الجامح المتمادى

ترقى و تلدغ فى القلوب و إن يشأحطّ النجوم بها من الأبعاد

فماذا ترون فى هذه الصورة الشعرية، صورة القلم البليغ الذى يحز فى قلوب الأعداء و كأنه السيف المسلول، القلم البليغ الذى يسترل الرماح و يردّ الجنود، و يسترد موارق القلوب بالترهيب و التخويف، القلم الذى يصيّر الصحائف و كأنها مملوءة بكوا من الأراقم و الصلال، القلم الذى يخيّل الصحائف للعدو و هى حمر قانية كتبت بالدم لا بالمداد، القلم الذى يسدّ مسدّ السوط فى رياضة الحرون، و مسدّ العنان فى عنق الجواد الجموح، القلم الذى يلدغ القلوب إن شاء، و يرقيها إن شاء، و يحطّ النجوم من الابعاد حين يريد.

إن هذا الوصف يعطينا فكرة واضحة عن فهم الشريف لقوة القلم البليغ، و هو ليس كالوصف الذى رأيناه منذ لحظات، و إنما هو وصف حى يأخذ ملامحه من قوة الاحساس و يقظة الجنان.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۲

و قد وصف البلاغة مرة ثانية و هو يرثى الصابى فقال:

إن تمض فالمجد المرجّب خالدأو تفن فالكلم العظام بواقى

مشحوذة تدمى بغير مضاربكالسيف أطلق فى طلى الاعناق

يقبلن كالجيش المغير يؤمّهكمش الازار مشمّر عن ساق

قرطات آذان الملوك خليقةبمواضع التيجان و الأطواق

عقدوا بها المجد الشرود و أثّلوادرجا إلى شرف العلا و مراقى

أوترتها أيام باعك صلّبو كددتها بالنزع و الاغراق

حتى إذا مرحت قواك شددتهاباسم على عقب الليالى باقى

كنجائب قعدت بها أرماقهامحسورة فمشين بالأعراق

و هو فى هذه الابيات يضع أمام أعيننا صورة ثانية تغاير الصورة الاولى بعض المغايرة و تماثلها فى المدلول، و لكنه يأتى بمعنى جديد حين يصور ما كان عليه القلم فى الحالين: حال الشباب و حال المشيب، فهو فى الحال الاول يشدّ كلامه بوثاق القوة، و هو فى الحال الثانى يسند كلامه بقوة الروح.

و قد وصف بلاغة الصابى و هو يرثيه مرة ثالثة فقال:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۳ هو الخاصب الأقلام نال بها علاتقاصر عنها الخاضبون العواليا

مغيد ضراب باللسان لو انهبيوم وغى فلّ الجراز اليمانيا

و هذا يدلكم على أن البلاغة كانت تملأ أقطار ذهنه فيراها أكرم ما يبكى به الرجال.

و مدح الشريف ابن جنى ورثاه، و قد رأيناه فى الحالين ينص على بلاغته، فيقول فى المدح:

فدى لأبى الفتح الافاضل إنهيبرّ عليهم إن أرمّ و قالا

إذا جرت الآداب جاء إمامهاقريعا و جاء الطالبون إفالا

فتى مستعاد القول حسنا و لم يكنيقول محالا أو يحيل مقالا

ليقرى أسماع الرجال فصاحةو يورد أفهام العقول زلالا

و يجرى لنا عذبا نميرا و بعضهمإذا قال أجرى للمسامع آلا

و يقول فى الرثاء:

فمن لأوابى القول يبلو عراكهاو يحذفها حذف النبال الموارق

إذا صاح فى أعقابها اطردت لهثوانى بالاعناق طرد الوسائق

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۴ و سوّمها ملس المتون كأنهانزائع من آل الوجيه و لا حق

تغلغل فى أعقابهن وسومهبأبقى بقاء من وسوم الأيانق

ففى الناس منها ذائق غير آكلو قد كان منها آكلا غير ذائق

و من للمعانى فى الأكمّة ألقيتإلى باقر غيب المعانى وفاتق

يطوّح فى أثنائها بضميرهمرير القوى ولّاج تلك المضايق

تسنّم أعلا طودها غير عاثرو جاوز أقصى دحضها غير زالق

فهو فى الابيات الاولى يصفه بحلاوة القول، و هو فى الابيات الاخيرة يصفه بسياسة القول. و لا يلتفت إلى سياسة القول إلا الشعراء المثقفون الذين راضتهم الايام على وزن مقامات البيان.

و لا بأس من أن نستطرد قليلا فنقول: إن اهتمام الشريف بمدح ابن جنّى و رثائه موصول الاواصر بحياته الادبية، فقد كان ابن جنى شرح قصيدته الرائعة فى رثاء ابراهيم بن ناصر الدولة الحمدانى، و هى التى يقول فى مطلعها:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۵ ألقى السلاح ربيعة بن نزارأودى الردى بقريعك المغوار

و تجردى عن كل أجرد سابحميل الرقاب نواكس الابصار

و سنعود إلى هذه القصيدة بعد حين، و لكن المهم أن نسجل أن الشريف كان يعادى و يصادق فى سبيل حياته الشعرية، فهو قد مدح

ابن جنى و رثاه لأنه شرح إحدى قصائده فى الرثاء، و كذلك فعل مع الصاحب بن عباد، فقد بلغه أن شيئا من شعره وقع إليه فأعجب به و أنفذ إلى بغداد لاستنساخ سائر شعره، فلما بلغه ذلك أخذ منه الطرب كل مأخذ، و مدح الصاحب بقصيدة بارعة منها الأبيات التى سلفت فى وصف القلم، و لكنه أخفاها عنه و لم يرسلها إليه خوفا من أن يتّهم بالسعى فى طلب المال، ثم مدحه بقصيدة ثانية لا يعنينا منها فى هذا المقام إلا اهتمامه بوصف بلاغة الصاحب إذ يقول:

كم حجة لك فى النوافل نوّهت‌بدعاء دين العدل و التوحيد

و مجادل أدمى جدالك قلبه‌و أعضّه بجوانب الصّيخود

و شفيت ممترض الهوى من معشرسدّوا من الآراء غير سديد

قارعتهم بالقول حتى أذعنواو أطلت نوم الصارم المغمود

جمر بمسهكة الرياح نسفته‌كان الضلال يمدّه بوقود

فهذه الأبيات تمثل فهمه لخطر الجدل و القلم أصدق تمثيل، و ترينا

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۶۶

كيف كان يدرك أن القلم و اللسان يغنيان أحيانا عن سل السيوف فى كبح الخصوم و تأييد الآراء.

و لما مات الصاحب رثاه الشريف بقصيدة قوية جاء فيها قوله فى وصف ما تصنعه الأقلام:

واها على الأقلام بعدك إنهالم ترض غير بنان كفك آلا

أفقدن منك شجاع كل بلاغةإن قال جلّى فى المقال و جالا

من لو يشا طعن العدا برؤوسهاو أثار من جريالها قسطالا

و إذا تجايشت الصدور بموقف‌حبس الكلام و قيد الاقوالا

بصوائب كالشّهب تتبع مثلهاو رعال خيل يتّبعن رعالا

فهو يجعل الحجج الصوائب فى قوة الخيل المغيرات، و هى أخيلة بدوية كان يحسّ صورها كل الإحساس.

و فى الشواهد التى سلفت ما يريكم كيف كان الشريف يهتم بوصف اللّسن، و كيف كانت تروعه قوة الجدل، و قد وصل فى ذلك إلى أبعد الغايات و هو يقول فى رثاء عبد العزيز بن يوسف:

أبكيك يا عبد العزيز لخطةتعمى مطالعها و خطب مضلع

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۶۷ و مقاوم ما زلت تعجز ليلهابلسان قوّال و قلب سميذع

إنى أرى فى المجد بعدك ثلمةتبقى و خرقا ماله من مرقع

من يشرق الخصم الألدّ بريقه‌عيّا و يقدع منه ما لم يقدع

أم من يبلّغ بالبلاغة غايةتلوى بحسرى طالبين و ظلع

أم من يردّ من المغيرة غربهاو الخيل تنهض كالقطا بالدّرّع

بنوافذ للقول يبلغ وقعهاما ليس يبلغ بالرماح الشّرّع

شهب تشعشع فى النوائب ضوءهاكالشمس تنغض رأسها للمطلع

حتى يقول الغابطون و قد رأوافعلاته: زاحم بجدّ أودع

و يودّ من حمل الثنا لو أصبحت‌تلك الأداة على الكمىّ الأروع

إن لا تكن فى الجمع أمضى طعنةفلأنت أمضى خطبة فى المجمع

إن الفصاحة ذللت لك عنقهافأخذت منها بالعنان الاطوع

أمست ظهور المجد عندك ترتقى‌منها إلى قمع السّنام الامنع

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۸ كيد كمارقة النصال و دونه‌بشر كبارقة النصول اللمّع

نهّاز أذنبة الكلام إذا هفاقلب الجرىء وعىّ قول المصقع

قد قلت للمتعرضين لسطوه‌خلّوا و جار الارقم المتطلّع

و هـذا فنّ جديـد عند الشـريف، فأكثر من وصـفهم بالبلاغة كانوا من رجال السـيف، أما عبد العزيز بن يوسف فلم يكن له من أدوات القتـال غير القلم و اللسـان، و قـد وصف كلمـاته بأنهـا تفعـل مـا لاـ تفعـل مشـرعات الرمـاح، و انهـا تردّ الخيـل المغيرة و عليها أقطاب الدارعين، و حدد مقامه بين مقامات الأبطال بهذا البيت:

إن لا تكن فى الجمع أمضى طعنةفلأنت أمضى خطبة فى المجمع

و قد وصـفه بالكيد، و ذلك وصف طريف، لأنه يفصح عن خصـلة نادرة لا يجيدها إلا الاقلون، و الكيد سـلاح عرفه الساسة من قديم الزمـان و أنـا لا أعرف من أصوله شـيئا، و لكنى سـمعت انه يبنى و يهـدم و يبرم و ينقض. و الشـريف يعنى ما يقول و هو ينعت مبكيّة بالكيد فى موقف لا تذكر فيه غير كرائم الخلال.

و قد قلت فى كتاب النثر الفنى: إن ما بين أيدينا من أخبار عبد العزيز بن يوسف و رسائله لا يعطينا صورة صحيحة عن نفسه و أخلاقه، فهل أستطيع اليوم أن أعتمد على حكم الشريف فأقول إن ذلك الكاتب كان من كبار الكائدين؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۹

المهم أن نسـجل ان الشـريف كان يفهم جيـدا خطر القول، و كان يعرف أنه يطلب لكثير من الغايات، و يـدرك أن البلاغة لها مواطن خفية يدركها أقطاب الليل. و نعوذ باللّه من كيد الكائدين، و دسائس الخاتلين.

و مع هـذا لم يكن الشـريف يرى الـدنيا فى جميع أحوالها حومة قتال، فقد كانت عنده مواطن يرى فيها البلاغة تطلب لإيناس الافئدة و القلوب أليس هو الذى يقول فى رثاء أبى منصور الشيرازى:

كم مجلس صبّحته ألسنناتفضّ فيه لطائم الأدب

من أثر يونق الفتى حسن‌أو خبر يبسط المنى عجب

أو غرض أصبحت خواطرناتساقط الدر منه فى الكتب

كالبازد العذب روّقته صبا الفجرأو الظلم زين بالشنب

و كيف لا يعشق البلاغة و يراها من موارد الانس من يقرنها بجمال العزم و الحلم فيقول فى مدح أبى سعيد بن خلف:

خطاب مثل ماء المزن تبرى‌مواقعه العليل من القلوب

و عزم إن مضيت به جريّاهوى مطر القنا بدم صبيب

و حلم إن عطفت به معيداأطار قوادم اليوم العصيب

و ألفاظ كما لعبت شمال‌ملاعبها على الروض الخصيب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۰

أيها السادة:

تلكم ثقافة الشريف الرضى، و ذلك إحساسه بخطر البلاغة و قوة الكلام البليغ.

و إنما أطلنا فى سـرد الشواهـد و ضـرب الامثال لنريكم أن الشـريف لم يكن فى حياته الشـعرية من اللاهين، و إنما كان يقتحم البلاغة اقتحام الفحول، و يؤمن بأن الفصاحة من أشرف ما يزدان به الرجال، و يرى آثار الاقلام أبقى على الزمن من آثار الرماح و السيوف.

فان قلتم: و كيف صح للشريف أن يفتن بنفسه و بشعره ذلك الفتون؟

قلنا: إن لذلك موجبات سنعود اليها فى المحاضرة المقبلة بالتفصيل.

## مقام الشريف الرضى بين شعراء القرن الرابع

أيها السادة:

حديث الليلة عن شاعرية الشريف الرضى كما يصورها فى قصائده القصار و الطوال، و قد تعقبنا حديثه عن شعره فرأينا زهى به و اختال أكثر من ستين مرة، فساقنا ذلك إلى البحث عن السر فيما أدّى به الى الاسراف فى الزهو و الاختيال.

قد تقولون: و هل تفرد الشريف الرضى بالحديث عن شعره حتى تبحث عن السر فى ذلك؟ ألم تعرف هذه السجية فيمن سبقه من الشعراء كأبى تمام و البحترى و ابن الرومى و المتنبى؟

و أجيب بأن هذه الخصلة لم يتفرد بها الشريف، و لكنه أفرط و أسرف فلم يكن بدّ من الكشف عن سرّ ما وقع فيه من الإفراط و الإسراف.

و لكى تعرفوا كيف أفرط و أسرف، أسوق اليكم شواهد تبين غلبة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۱

الزهو على ذلك الشاعر، ثم أتبعها بالبحث عن أسرار ذلك الاختيال.

و لا أرى موجبا للاشارة إلى جميع المواطن التى زهى فيها بشعره، فقد حدثتكم أنها تزيد على الستين، و إنما أطوف ببعض الاشعار التى تكشف عن تلك الخصلة بوضوح و جلاء.

و أول ما أشير اليه هو إحساسه بأن الشعر دون قدره، و أن نفسه أعلا من أنفس الشعراء و أرفع، و هو يحدثنا أنه يتخذ الشعر وسيلة الى غرضه فيقول:

و ما قولى الاشعار الا ذريعةالى أمل قد آن قود جنيبه

و انى اذا ما بلّغ اللّه غايةضمنت له هجر القريض و حوبه

و يرى سيماه غير سيماء الشعراء فيقول:

و ما الشعر فخرى و لكنماأطول به همة الفاخر

أنزهه عن لقاء الرجالو أجعله تحفة الزائر

فما يتهدّى اليه الملوكالا من المثل السائر

و إنى و إن كنت من أهلهلتنكرنى حرفة الشاعر

و يرى القول دون الفعل فيقول:

مالك ترضى أن يقال شاعربعدا لها من عدد الفضائل

كفاك ما أورق من أغصانهو طال من أعلامه الأطاول

فكم تكون ناظما و قائلاو أنت غبّ القول غير فاعل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۲

و هذه الشواهد الثلاثة ترينا كيف كان يرى الشعر دون قدره و كيف كان يرى منزلته أرفع من منازل الشعراء.

و لكن هل يهرب من شاعريته؟ انّ هذا محال! فلم يبق الا أن يرى نفسه أشعر الامم فيقول:

كفاك بأن عرضك منطروق العار فى ذممى

و ذلك عصمة منىبحبل غير منجذم

و حسبك أن يفلّ شباة هجوك أشعر الامم

أو يرى شعره فوق شعر البحترى و مسلم بن الوليد فيقول:

شعر أثير به العجاج بسالة كالطعن يدمى و القنا تتحطم

و فصاحة لولا الحياء لهجّنت أعلام ما قال الوليد و مسلم

أو يتواضع فيرى نفسه زميل الفرزدق أو جرير فيقول:

و قصيدة عذراء مثل تألق الروض النضير

فرحت بمالك رقّهافرح الخميلة بالغدير

و كأنه فى رصفها جار الفرزدق أو جرير

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۳ و كأنه من حسنهابين الخورنق و السدير

أو يرى قوافيه كقوافى البحترى و أبى نواس فيقول:

و شرب قد نحرت لهم عقاراكحاشية الرداء الأرجوانى

كأن الشمس مال بها غروبفأهوت فى حيازيم الدّنان

فصل بدم العقار دم الاعادىو أصوات العوالى بالأغانى

فيوم أنت غرّته جواديبذّ بشأوه طلق القران

جعلت هديتى فيه نظاماصقيلا مثل قادمة السنان

بلفظ فاسق اللحظات تنمىمحاسنه إلى معنى حصان

و صلت جواهر الألفاظ فيهبأعراض المقاصد و المعانى

فجاءت غضّة الأطراف بكراتخيّر جيدها نظم الجمان

كأن أبا عبادة شقّ فاهاو قبّل ثغرها الحسن بن هانى

أو يرى نفسه ضريبا لزهير فيقول:

أنا زهير فمن لى فى زمانك ذابعض ما افترقت عنه يدا هرم

أو يرى شعره فوق شعر زهير فيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۴ بزّ زهيرا شعرى و هأنذالم أرض فى المجد أنه هرم

أو يرى كلامه فوق كلام الرجال فيقول:

جاءتك محصدة القوى حبّارةتستعبد الأرواح فى الأجسام

من لى بإنشاديكها فى موقفأعتدّه شرفا مدى أيامى

لا أدّعى فيه الغلوّ و إنمايوفى على قلل الرجال كلامى

أو يقول:

و إن قوافى الشعر ما لم أكن لهامسفسفة فيها عتيق و مقرف

أنا الفارس الوثّاب فى صهواتها و كل مجيد جاء بعدى مردف

أو يرى لسانه أمضى من السيف فيقول:

و أنا المضارب عن علاك بمقولماضى الغرار و لا الجراز المقصل

يدمى الجوارح و هو ساكن غمدهو لقلما يمضى بغمد منصل

و يرى نفسه فوق الشعراء- إذ كان يبتغى الكرامة و يبتغون المال فيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۵ مدحت أمير المؤمنين و إنه‌لأشرف مأمول و أعلا مؤمّم

فأوسعنى قبل العطاء كرامةو لا مرحبا بالمال إن لم أكرّم

و يرى شعره يرفع أقدار الرجال فيقول:

أبا قاسم جاءت اليك قلائدتقلّد أعناق الرجال المناقبا

قلائد من نظمى تودّ لحسنهاقلوب الاعادى أن تكون ترائبا

إذا هدّها راوى القريض حسبته‌يقوم بها فى ندوة الحىّ خاطبا

فلو كنّ غدرانا لكنّ مشارباو لو كنّ أحداثا لكنّ تجاربا

أو يقول:

فحسبك فخرا بهذا المديحو إن غاض فى المدح ماء افتخارى

يزورك بين قلوب العداةفيقطعها فى اتصال المزار

غدت كف مجدك من مدحتى‌تجول معاصمها فى سوار

و يشبّه أشعاره بالعقائل فيقول:

و كنت زمانا أذود الملوك عن السّلك رقرقت فيه النظاما

أريد الكرامة لا المكرماتو نيل العلا لا العطايا الجساما

فحوزوا العقائل عن خاطرى‌إلى م أماطل عنها إلى ما

و يرى شعره أعزّ من أن يمدح به غير الخلفاء، فيقول فى خطاب الطائع للّه:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۶ أنت أفسدتنى على كل مأمول و أعديتنى على كل خطب

فإذا ما أراد قربى مليك‌قلت قربى من الخليفة حسبى

عزّ شعرى إلا عليك و ما زال عزيزا يأبى على كل خطب

أو يمنّ به على أحد الوزراء فيقول:

خطبت شعرى إلى قلب يضنّ به‌إلا عليك فباشر خير مخطوب

و قد يرى شعره بشيرا بالنعيم، و نذيرا بالعذاب، فيراه غيثا ينفع الاولياء، و صواعق تحرق الأعداء، كأن يقول فى خطاب أبيه:

و هذا مقالى فيك غيث و ربمارميت العدا من وقعه بالصواعق

و كأن يقول فى التهديد:

حذاركم بنى الضحاك إنى‌إلى الامر الذى تومون أومى

فلا تتعرضوا لذراع عادمدل عند جيسته شتيم

فإن تك مدحة سبقت فإنى‌بضد نظامها عين الزعيم

و قافية تخضخض ما ترامت‌بها الأيام فى عرض اللئيم

تردد ما لها ممن يعيهاسوى الإطراق منها و الوجوم

لها فى الرأس سوارت يطاطى‌لها الانسان كالرجل الأميم

ليعلم من أنا ضل أن شعرى‌يطالع بالشفاء و بالنعيم

و للشريف أفانين من التهديد، و هو يتوعد توّعد الباطشين، و يرى شعره يعرق العظام و ينكّل بالأحساب. و انظروا كيف يقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۷ فدونكها قاصفا عاصفامن الشر أو عارضا مرزما

قوارص تنثر نظم الدروعو تستنزل البطل المعلّما

فمن كان يسقيك أرى الجنىفإنى سألعقك العلقما

و من كان يلقاك مستسلمافإنى ألاقيك مستلئما

و الشريف فى وعيده يكشف عن صدر صهره الغيظ، و قلب أضرمته الضغائن و الحقود. و ما كان لمثل هذا الرجل أن يلقى جميع الناس بقلب رفيق، و هل يعرف الرفق من يقول:

أحرجتنى فهاكهابنت عناق و الرّقم

و الليث لا يخرج إلّامحرجا من الأجم

كلذعة الميسم فىشواظ نار و ضرم

و الحية الرقطاء تردى أبدا بغير سمّ

حقّا على أعراضكم تعطّها عطّ الادم

فاستنشقوها نفحةتجدع مارن الأشمّ

تقرض من جنوبكمطمّ اللمام بالجلم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۸ كأنما تضرب فى العرضالاعز بالقدم

مذكورة ما بقيتمن غير عقد لرتم

ترى على عارى العظامو سمها و هى رمم

فلو نزعت الجلد كانرقمها كما رقم

كم جرّدت شفارهالحم فتى بلا و ضم

خابطة لا تتقىصدم أخ و لا ابن عم

أيها السادة:

قد أشرت كما ترون إلى نحو عشرين موضعا زهى فيها الشريف بشعره و اختال، و قد حدثتكم أن تلك المواضع نيّفت على الستين، و الآن أحب أن نفهم معا كيف صح ذلك الزهو و ذلك الاختيال:

كان يكفى أن نسجل هذه الظاهرة النفسية، و أن نقول إنه سلك طريقا سار فيه كثير من الشعراء، و لكنى رأيت بعد التأمل و الدرس أن هذه الظاهرة النفسية تجرّ وراءها أشياء، و أكاد أجزم بأنها تدل دلالة على أن الرجل كان يحس أنه يحيا فى عصره حياة المغبون، و أنه كان على أهل زمانه من الحاقدين.

و لكن كيف يصح هذا الافتراض؟ ها كم البينات:

كان الشريف يعيش فى عصر احتله الاموات و احتله الأحياء.

أما الاموات الذين احتلوا عصره فهم البحترى و أبو تمام و المتنبى، و قد شاء النقاد أن يمكّنوا أولئك الاموات من ذلك الاحتلال، و أظهر شاهد على ذلك ما صنع أبو العلاء المعرّى الذى عاش دهره كله و هو يحقد على

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۹

الشريف الرضى أبشح الحقد، فقد ألف ثلاثة كتب فى شاعرية أبى تمام و البحترى و المتنبى، و أراد أن يسجل أن دنيا الشعر وقف على هؤلاء الثلاثة فقال: البحترى هو الشاعر، و أبو تمام و المتنبى حكيمان. و كان الغرض من هذا الحكم أن يكون هؤلاء الثلاثة محور الجدل و الخلاف.

و يضاف إلى هذا أن الشريف الرضى أعلن خصومته لشاعرية المتنبى و إعلان هذه الخصومة عاد على ذكرى المتنبى بأجزل النفع، فقد كان للشريف كثير من الاعداء، و اولئك الاعداء أصابوا فرصة لم تكن تخطر ببال، فقد مضوا يبدئون و يعيدون فى الكلام عن عبقرية المتنبى، و أذاعوا فى الناس أنه شاعر لن يجود بمثله الزمان، و كانت هذه الاحكام ظاهرها حب الادب و باطنها إغاظة الشريف.

و قد أراد خصوم المتنبى أن يقوموا بحركة عكسية، و لكنهم لم يفلحوا، فقد أرسل الصاحب بن عباد يستنسخ ديوان الشريف ليفهم الناس أن الشريف هو شاعر الجيل، و أن العصبية للمتنبى لا تمنع من التسليم بأن عالم الشعر لا يزال فيه مجال للاعلام و الاقطاب .

قد تقولون: و كيف جاز للشريف أن يحقد على رجل مات قبل أن يجىء هو إلى الدنيا بأعوام؟

و أجيب بأن موت المتنبى فى القرن الرابع لم يكن مثل موت شوقى فى القرن الرابع عشر: فقد سكت النقاد عن شوقى بعد إذ مات، لان شوقى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۰

كان ملك الجماهير فى زمانه ملكا قويا، و كان تفرّد بأفانين من الشعر عجز عنها معاصروه، فلما مات سلموا له بالامارة الشعرية، و عادوا إلى شؤونهم ساكتين.

و لم يكن الحال كذلك بعد موت المتنبى، فقد كان على جهارة صوته و جلجلة شعره يحدّث الناس بما يألفون، و كانت له بدوات لفظية و معنوية تؤلب الناس عليه، و تهيج النحويين و اللغويين، فلما مات بقيت الفرصة للجدل و الشغب و الضجيج، و انقسم الناس حول شعره إلى فريقين: عدوّ و صديق، و كذلك ظل يثير الهيجاء و هو هامد بين الصفائح و التراب، و لو تسمّع الناس صوت رفاته البالى لرأوه يقول:

أنام ملء جفونى عن شواردهاو يسهر الخلق جرّاها و يختصم

و من المؤكد أن الشريف شهد الخصومة حول شعر المتنبى و هو طفل و من المؤكد أيضا ان عظمة المتنبى احتلت أقطار نهاه، و لعلها كانت السبب فى أن ينظم الشريف أجود الشعر و هو ابن عشر سنين، فليس من المستبعد أن يكون فى أساتذة الشريف من لقّنه الحقد على المتنبى، ثم ظل هذا الحقد عقيدة أدبية يساورها و تساوره طول الحياة.

و أقف عند الغرض الاصيل فأقول: إن الشريف كان يعجب لانصراف الناس عن شعره و إقبالهم على شعر المتنبى، و قد انقلب هذا العجب إلى حقد: لانه كان يرى نفسه أشعر من المتنبى، و كان يفهم جيدا ان الناس لو خلصت ضمائرهم من أوضار العصبيات الدينية و السياسية و الادبية لفضلوه على المتنبى، و لكنهم لن يخلصوا و لن يسعفوا الشريف بما يريد.

و لم يكن المتنبى هو الشاعر الوحيد الذى يحتل أذهان أهل بغداد من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۱

فقد كانت هناك أطياف ترد إلى أهل بغداد من شاعر ولد فى بلد بعيد و عاش فى القرن الرابع: و هو أبو القاسم بن هانى الذى ولد فى إشبيلية، و سمت به همته إلى أن يكون أمير الشعراء فى مصر، ثم احتضره الموت و هو فى الطريق، فلم يشهد بساتين الجزيرة و لا مساجد الفسطاط.

و كانت أطياف ابن هانى تغيظ الشريف الرضى أشد الغيظ: لأن الناس لم يكونوا يجدون عبارة تفيه حقه من الثناء إلا أن يقولوا هو متنبى المغرب.

و لا نعرف بالضبط كيف عرف العراقيون شعر بن هانى لعهد الشريف، و لكن من المؤكد أن ابن هانى كانت له سمات تلفت العراقيين إليه: فقد كان شاعر الفاطميين أعداء العباسيين، الفاطميين الذين أنشأوا القاهرة لينافسوا بغداد، و ليخلقوا الخصومة بين دجلة و النيل.

أيها السادة:

حدثناكم حديثا موجزا عن شاعرين كانا يحتلان أذهان الناس فى بغداد من بين الأموات، و هما المتنبى و ابن هانى، و بيّنا كيف كان الشريف يغتاظ لصيرورة ما أبدعا من الآيات، فما بالنا لا نخبط شجرة الشعر فى القرن الرابع لنرى كيف كان الشريف يتعب و يضجر و يلتاع ليرفع رايته فى ذلك البحر المحيط؟

لقد كان العراق فى القرن الرابع مسرحا لعرائس الشعر الجميل، و كان المرء لا يلتفت إلا رأى نفائس و غرائب تبهر الأذواق و القلوب و القول.

ففى القرن الرابع ولد السّلامى، ولد بالكرخ لستّ خلون من رجب سنة ۳۳۵، و قد بهر الناس بشعره فى مطلع صباه، فقد كان أول ما سار من شعره قوله و قد ركب سفينة فى دجلة، و كان ركبها أول مرة .

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۲ و ميدان تجول به خيول‌تقود الدارعين و لا تقاد

ركبت به إلى اللذات طرفا له جسم و ليس له فؤاد

جرى فظننت أن الارض وجهو دجلة ناظر و هو السّواد

و قد مضى السّلامى يبدع و يجيد حتى فتن أهل بغداد، و حتى استطاع أن يقول:

و فيهن سكرى اللحظ سكرى من الصّباتعاتب حلو اللفظ حلو الشمائل

أدارت علينا من سلاف حديثهاكؤوسا و غنّتنا بصوت الخلاخل

و استطاع أن يجيد وصف الزنابير التى تضجر أهل بغداد فيقول:

و لابس لون واحد و هو طائرملوّنة أباراده و هو واقع

أغرّ محشىّ الطيلسان مدبّجو سود المنايا فى حشاه ودائع

إذا حكّ أعلا رأسه فكأنمابسالفتيه من يديه جوامع

يخاف إذا ولى و يؤمن مقبلاو يخفى على الأقران ما هو صانع

بدا فارسىّ الزى يعقد خصرهعليه قباء زيّنته الوشائع

فمعجره الوردىّ أحمر ناصعو مئزره التبرىّ أصفر فاقع

يرجّع ألحان الغريض و معبدو يسقى كؤوسا ملؤها السم ناقع

و السّلامى هذا كان شغل أهل العراق فى القرن الرابع فمنحوه لقب أمير الشعراء، فانظروا كيف كان يصح للشريف الرضى أن يسكت عن ضياع شعره، و هو أشعر من أمثال السلامى بلا جدال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۳

و فى ذلك العصر نبغ فى العراق ابن نباتة السعدى الذى وصف الثعالبى قصائده بأنها أحسن من مطالع الأنوار و عهد الشباب. و أرقّ من نسيم الاسحار و شكوى الأحباب، ابن نباتة الذى يقول:

و كم لليل عندى من نجومجمعت النثر منها فى نظام

عتابا أو نسيبا أو مديحالخلّ أو حبيب أو همام

تفيد بها العقول نهى و صحواو قد فعلت بها فعل المدام

لها فى حلبة الآداب ركضإلى حبّ القلوب بلا احتشام

ابن نباتة الذى يقول:

عجبت له يخفى سراه و وجههبه تشرق الدنيا و بالشمس بعده

و لا بدّ لى من جهلة فى وصالهفمن لى بخلّ أودع الحلم عنده

و فى ذلك العهد نبغ بالموصل شاعر فحل هو السّرى الرّفاء السرّى الذى يقول و قد شرب فى زورق:

و معتدل يسعى إلىّ بكأسهو قد كاد ضوء الصبح بالليل يفتك

و قد حجب الغيم السماء كأنمايزرّ عليها منه ثوب ممسّك

ظللنا نبث الوجد و الكأس دائرو نهتك أسرار الهوى فنهتّك

و مجلسنا فى الماء يهوى و يرتقىو إبريقنا فى الكأس يبكى و يضحك

و أكاد أجزم بأن السرى الرفاء نال من نفس الشريف كل منال، فقد شغل النقاد بشعر الرفاء شغلهم بشعر المتنبى، فأفنوا الليالى فى إخراج سرقاته الشعرية و مزقوه كل ممزّق، و كان الشريف يتمنى أن يظفر شعره من النقاد ببعض ما ظفر به شعر الرفاء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۴

و فى عصر الشريف نبغ فى العراق شاعران ما جنان هما ابن سكّرة و ابن حجاج، و كان لهذين الشاعرين فى زمانهما مكان مرموق، فكان يقال فى بغداد (إن زمانا جاد بابن سكرة و ابن حجاج لسخىّ جدا و كانت أشعار هذين الماجنين تباع فى الاسواق بأثمان غالية، و كان الناس يتشوفون إلى أشعارهما تشوف الصائمين إلى طلعة شوال، و ما ظنكم بديوان شعر يباع بخمسين دينارا فى أزمان قضت عليها الفتن و الثورات بضيق العيش و اختلال الأحوال! و قد طغى هذان الشاعران فى زمانهما أبشع الطغيان، بفضل ما خلبا به الناس من أشعار الهزل و المجون، و بفضل ما رزقا من قوة الافتنان مع خفة الروح.

أما ابن سكرة فكان يبدع فى وصف مجالس اللهو و الانس كأن يقول:

و يوم لا يقاس اليه يومبلوح ضياؤه من غير نار

أقمنا فيه للذات سوقا نبيع العقل فيها بالعقار

و قد اتفق له أن يعشق قينة سوداء اسمها «خمرة» فقال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت، و كانت هذه الحكاية مدار السّمر فى أندية بغداد، و أثّرت فى الشريف الرضى نفسه فأنشأ القصائد الطوال فى التشبيب بالسود الملاح .

و أما ابن حجاج فقد تفرد بفن من السخف لم يسبقه اليه سابق ، و كان السخف فى ذلك الزمن شيئا يطلبه أحرار الرجال ليتلهوا عما يحيط

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۵

بهم من المعاطب و الظلمات. و قد بلغ الشعر بابن حجاج كل مبلغ فحصّل الأموال، و عقد الأملاك، و صار مقضىّ الحاجة، مقبول الشفاعة، محذور الجانب، متقى اللسان .

و لم يكن السخف كل بضاعة ابن حجاج: فقد كان يجيد فى سائر ضروب الشعر إجادة الفحول، و اضطر الشريف إلى العكوف على دراسة شعره فاخرج منه مختارات سماها (الحسن من شعر الحسين).

و لما مات رثاه الشريف بقصيدة جيدة ابتدأها بهذين البيتين:

نعوه على ضنّ قلبى بهفلله ماذا نعى الناعيان

رضيع ولاء له شعبةمن القلب فوق رضيع اللّبان

و ختمها بهذين البيتين:

فزل كزيال الشباب الرطيبخانك يوم لقاء الغوانى

ليبك الزمان طويلا عليكفقد كنت خفة روح الزمان

و أستطيع أن أقول إن الشريف كان يعطف على ابن حجاج لبعض الوفاق فى المذاهب الدينية أو السياسية: فقد كان يعرض ببعض خصوم أهل البيت، كأن يقول فى خطاب أبى إسحاق الصابى:

فداك اللّه بى و بكل حىّ‌من الدنيا دنىّ أو شريف

يحلّ لك التغافل عن أناس‌تولوا ظلم خادمك الضعيف

و لست بكافر فيحلّ مالى‌و لا الحجاج جدى من ثقيف

فمر بدراهمى ضربا و إلاجعلت سبال قوفا فى الكثيف

و لم تمنعه مراعاة الخلافة العباسية فى بغداد من مدح الخلفاء الفاطميين بالقاهرة و الظفر بما فى مصر من طيبات الهدايا و الدنانير .

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۶

و لكن من الظلم أن نقضى بأن ذلك التوافق المذهبى كان كل الأسباب فى عطف الشريف على ابن حجاج، فقد كانت لهذا الرجل و ثبات شعرية قليلة الامثال، فهو الذى يقول:

و مدلّل أما القضيب فقدّه‌شكلا و أما ردفه فكثيب

يمشى و قد فعل الصّبا بقوامه‌فعل الصّبا بالغصن و هو رطيب

متلوّن يبدى و يخفى شخصه‌كالبدر يطلع مرة و يغيب

أرمى مقاتله فتخطىء أسهمى‌غرضى و يرمى مقتلى فيصيب

نفسى فداؤك إن نفسى لم تزل‌يحلو فداؤك عندها و يطيب

مالى و ما لك لا أراك تزورنى‌إلا و دونك حاسد و رقيب

تلكم حال ابن سكرة و ابن حجاج، فهل يمكن القول بأن الشريف كان ينظر إلى نجاح هذين الشاعرين بعين الارتياح؟

و كيف و هو يراهما ينتهبان الجوّ الادبى أفظع انتهاب، و يبلغان بالهزل ما لا يبلغ معشاره أصحاب الجد الصّراح؟

و لا تنسوا أنى أسوق هذا الكلام لا بين السر فى حرص الشريف على الزهو بشعره، و الاختيال بعبقريته، فقد كان مضطرا إلى تذكير أهل العراق بما له فى الشعر من مقام جليل.

و فى القرن الرابع نبغ أبو الحسن الجرجانى الذى ذكّر الناس بعهد البحترى، و قد فصلت الكلام عن شعره و نثره فى الجزء الثانى من كتاب «النثر الفنى» فلا أعود اليه الآن، و إنما يهمنى أن أنص على أنه كان من أشهر من أنصفوا المتنبى، و كان الشريف يبغض المتنبى، كما تعلمون

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۷

و من نوابغ القرن الرابع أبو الفتح كشاجم، و كان شعره فى ذلك العهد و يحانة أهل الادب فى العراق، و كان مورد رزق للنساخ و الورّاقين، و طوّفت أشعاره بالمشرق و المغرب حتى وصلت إلى القيروان، و تخير أطايبها مؤلف «زهر الآداب» فانظروا كيف يضيق صدر الشريف الرضى و هو يرى هذه الشهرة لشعر كشاجم على حين يظل شعره الفخم بلا رواة و لا شرّاح و لا نقّاد، و هو فى نفسه أشعر الناس.

و من أعلام ذلك العصر أبو حامد الانطاكى، و هو شاعر نشأ بالشام ثم رحل إلى مصر فعاش فيها عيش الترف إلى ان مات سنة ۳۹۹ و قد كانت لهذا الشاعر فى زمانه شهرة عظيمة لانه اراد ان يكون فى مصر و الشام كابن سكرة و ابن حجاج فى العراق.

و يظهر انه صادف فى مصر جماعة من اهل الهزل و المجون فأوغل فى السخف كل الإيغال، و سمى نفسه ابا الرقعمق، و اعلن انه حليف الرقاعة و الحماقة، حتى صح له ان يقول:

استغفر اللّه من عقل نطقت به‌مالى و للعقل؟ ليس العقل من شأنى!

و لكن هذا الشاعر لم يخل من عبقرية نبيلة، فقد سجل فى شعره ليل تنّيس و هى مدينة مصرية كان لها حظّ مرموق، و كان بها فى بعض العهود خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث، و كانت كذلك من اماكن الصيد صيد الطير لا صيد الظباء، فكان بها من

انواع الطيور مائة و نيف و ثلاثون صنفا ذكرها بأسمائها صاحب معجم البلدان. و سجل الانطاكيّ كذلك ملاعب الجزيرة، جزيرة الفسطاط، لا الجزيرة التى يصلنا بملاعبها فى هذه الايام جسر إسماعيل، و انظروا كيف يقول و قد طال شوقه إلى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۸

ملاعب الفسطاط:

ليلى بتيّس ليل الخائف العانى تفنى الليالى و ليلى ليس بالفانى

أقول إذ لجّ ليلى فى تطاوله: يا ليل انت و طول الدهر سيان

لم يكف أنى فى تنيس مطّرح مخيّم بين اشجان و احزان

حتى بليت بفقدان المنام فماللنوم إذ بعدوا عهد باجفانى

ما صاعد البرق من تلقاء ارضهم إلا تذكرت ايامى بنعمان

و لا حننت إلى نجران من طرب إلا تكنفنى شوق لنجران

لا تكذبنّ فما مصر و إن بعدت إلا مواطن اطرابى و أشانى

ليالى النيل لا أنساك ما هتفت ورق الحمام على دوح و اغصان

اصبو إلى هفوات فيك لى سلفت قطعتهنّ و عين الدهر ترعانى

مع سادة نجب غرّ غطارفة فى ذروة المجد من ذهل بن شيبان

و ذى دلال إذا ما شئت انشدنى و إن أردت غناء منه غنانى

سقيته و سقانى فضل ريقته و جادلى طرفه عفوا و منّانى

ما زال ياخذها صفراء صافية حتى توسد يسراه و خلّانى

اللّه يعلم ما بى من صبابته و ما علىّ جناه طرفه الجانى

كم بالجزيرة من يوم نعمت به على تضاحك نايات و عيدان

سقيا لليلتنا بالدير بين رباباتت تجود عليها سحب نيسان

و الطلّ منحدر و الروض مبتسم عن أصفر فاقع أو أحمر قانى

و النرجس الغض منهلّ مدامعه كأن أجفانه أجفان و سنان

و لا يمكن الشك فى ان الشريف الرضى سمع باخبار هذا الشاعر و ما

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۹

كان لشعره من الذيوع فى الاقطار الشامية و الديار المصرية.

و فى القرن الرابع نبغ ابن درّاج الأندلسى، و قد فصلت أخباره و وازنت بينه و بين أبى نواس فى كتاب «الموازنة بين الشعراء» و إنما يهمنى أن أنص على أن فى أشعاره ما يدل على أنه رحل إلى المشرق فعرف العراق و خراسان إذ يقول:

فإن غرّبت أرض المغارب موئلى و أنكرنى فيها خليط و خلّان

فكم رحّبت أرض العراق بمقدمى و أجزلت البشرى علىّ خراسان

و إن بلادا أخرجتنى لعاطل و إن زمانا خان عهدى لخوّان

سلام على الإخوان تسليم آيس و سقيا لدهر كان لى فيه إخوان

فلا مؤنس إلا شهيق و زفرة و لا مسعد إلا دموع و أجفان

و ما كان ذاك البين بين أحبة و لكن قلوب فارقتهن أبدان

فيا عجبا للصبر منا كأننالهم غير من كنا و هم غير من كانوا

مضى عيشهم بعدى و عيشى بعدهم كأنى قد خنت الوفاء و قد خانوا

و لا تندهشوا أيها السادة حين أحدثكم عن غيرة الشريف الرضى من سلطان الشعراء فى المشرق و المغرب، فقد كانت الدواوين الشعرية تصل إلى بغداد فى حيوات أصحابها، و كانت بغداد تشعر بخطر المنافسة، منافسة القاهرة و قرطبة، فكانت تستورد كل ما تجود به القرائح، و إن تباعدت البلاد.

و كان العراقيون و من والاهم من أهل المشرق يضنّون بالكتب ضنّ الأشراف بالأعراض: فقد غلب أديب على نسخة الجمهرة لابن دريد، غلبه الفقر، و هو أبو الحسن على بن أحمد الفالى، فباعها للشريف المرتضى بستين دينارا، فلما تصفحها الشريف وجد فيها بخط البائع هذه الأبيات.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۰ أنست بها عشرين حولا و بعتهافقد طال وجدى بعدها و حنينى

و ما كان ظنى أننى سأبيعهاو لو خلّدتنى فى السجون ديونى

و لكن لضعف و افتقار و صبيةصغار عليهم تستهلّ شؤونى

فقلت و لم أملك سوابق عبرةمقالة مكوىّ الفؤاد حزين

(و قد تخرج الحاجات يا أمّ مالككرائم من ربّ بهنّ ضنين)

و يقال إن المرتضى ردّ النسخة إلى صاحبها بعد قراءة هذه الأبيات و ترك الدنانير.

أيها السادة:

رأيتم كيف كان الشعر يرفع أهله فى القرن الرابع، و كيف كان الشريف يضجر من خموله بين الشعراء. مع أنه كان فى نفسه و فى الواقع سيد الشعراء.

فلننظر الآن نظرة ثانية نرى بها كيف عظمت منزلة الشعر فى القرن الرابع، حتى استطاع الرضىّ على شرف منبته أن يرى الشعر من أظهر مزاياه كان الشعر فى ذلك العصر مما يتحلى به الامراء و الرؤساء، فكان من أقطابه أمير مصر تميم بن المعز، و كان من أعلامه السادة الحمدانيون من أمثال سيف الدولة و أبى فراس.

و كيف لا يعزّ الشعر فى زمن يكون من شعرائه وزراء عظام كأبى الفضل ابن العميد و الصاحب ابن عباد؟ كيف لا يعز الشعر فى زمن يكون من شعرائه قاض كأبى الحسن الجرجانى و كاتب مثل عبد العزيز بن يوسف؟

و من عجائب ذلك العصر أن رجاله كانوا فى الأغلب يجمعون بين الصناعتين: الشعر و الانشاء، فكانت البلاد تموج موجا بمواكب الخيال و البيان.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۱

و كان الشريف الرضى ينظر إلى تلك المواكب بعين القلق و الحيرة:

لأن الظروف السياسية كانت ضيقت عليه الخناق، و أقصت عنه أسباب السلطة الأدبية، و هى سلطة هائلة كان لها الأمر يومئذ فى مصاير الرجال.

و سترون فى المحاضرة المقبلة تفصيل هذا الجانب من حياة الشريف، و لكن المهم فى هذه اللحظة أن تثقوا بأن الظروف هى التى أحرجته و قضت عليه و هو رجل مهذب بأن يخرج على قواعد الذوق فيزهى بشعره و يختال، المهم عندى أن تعذروا الشريف حين ترونه يقول:

سيسكتنى يأسى و فى الصدر حاجةكما أنطقتنى و الرجال المطامع

بضائع قول عند غيرى ربحهاو عندى خساراتها و الوضائع

غرائب لو هدّت على الطود ذى الصّفاأصاخ اليها يذبل و القعاقع
تضاع كما ضاعت خلاة بقفرةزفتها النّعامى و الرياح الزعازع
كأن لسانى نسعة حضرميةطواها و لم يبلغ لها السوم بائع
لقد كان لى عن باحة الذل مذهبو مضطرب عن جانب الضيم واسع
و ما مدّ ما بينى و بين مذاهبىحجاز و لا سدّت علىّ المطالع
سيدرى من المغبون منا و منكمإذا افترقت عما نقول المجامع
و هل تدّعى حفظ المكارم عصبةلئام و مثلى بينها اليوم ضائع
نعم لستم الأيدى الطوال فعاونواعلى قدركم قد تستعان الأصابع
إذا لم يكن و صلى إليكم ذريعةفيا ليت شعرى ما تكون الذرائع
أرى بارقا لم يرونى و هو حاضرفكيف أرجّى ريّه و هو شاسع
سأذهب عنكم غير باك عليكمو ما لى عذر أن تفيض المدامع
و أعتدّ فجا أنتم من حلالهثنيّة خوف ما له اليوم طالع

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۲

و ما موقفى و الركب يرجى على الصدىموارد قد نشّت بهن الوقائع
أفارقكم لا النفس و لهى عليكمو لا اللبّ مخلوس و لا القلب جازع
و لا عاطفا جيدى اليكم بلفتةمن الشوق ما سار النجوم الطوالع
و لا ذاكرا ما كان بينى و بينكممراجعة، إن المحب المراجع
نبذتكم نبذة المخفّف ثقلهو إنى لحبل منّه الغدر قاطع

أيها السادة:

ذلكم مقام الشريف الرضى بين شعراء القرن الرابع، و تلكم شكواه من جماهير الناس فى بغداد، فليته يعود اليوم ليرى كيف تعطفون عليه بعد مئات السنين، و كيف تتوجعون لما كان يتوجع، و كيف تشفقون عليه إشفاق الأكرمين من الأوفياء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۳

## أعوام البؤس فى حياة الشريف

أيها السادة:

أحدثكم هذه الليلة عن أعظم حادثة أثّرت فى حياة الشريف، و أضرمت النار فى صدره، و بصّرته بحقائق الدنيا و خلائق الناس.

و هذه الحادثة تفسر لكم إلحاح الشريف فى مدح أبيه، و التشوق اليه، بطريقة لم تعرف عن أحد من الشعراء.

هذه الحادثة هى اعتقال أبيه و حبسه فى قلعة فارس من سنة ۳۶۹ إلى سنة ۳۷۶.

و قبل ان نفصّل أسباب هذه الحادثة نذكر ان الرضى ولد فى أيام كانت تفيض بالنكبات، و تعجّ بالدماء، فقد حدث و هو صبىّ فى المهد أن ثارت الفتن بين الديلم و الاتراك ثورة عادت على بغداد بأعظم الفجائع، و أبيحت مدينة الكرخ فدام فيها الحريق اكثر من اسبوع، و أحرق الرجال و النساء فى الدور و الحمامات، و تقدم أبو احمد الموسوى والد الرضى لمخاطبة العباس بن الحسين وزير بختيار و محاسبته على ما وقع فى الكرخ، فغضب الوزير و صرفه عن النقابة، و كانت يومئذ أعظم منصب يتولاه الاشراف.

و ما كاد الشريف يدرك كيف يبتسم لأبويه و هو فى المهد حتى وقع حادث انكشفت به الخلافة الاسلامية أبشع انكشاف: فقد وردت الاخبار إلى بغداد بأن الروم غزوا نصيبين فملكوها و أحرقوها و قتلوا الرجال و سبوا الذرارى، ثم ورد ناس من ديار ربيعة و

ديار بكر مدينة بغداد و استنفروا المسلمين فى المساجد و الاسواق، و خوّفوا البغداديين عواقب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۴

ما يتطلع اليه الروم من غزو العراق، و قامت مظاهرة هائلة توجهت إلى قصر الخليفة المطيع للّه، و حاول المتظاهرون الهجوم عليه، و قلعوا طائفة من نوافذ القصر، فأغلقت دونهم الابواب بعد ان كادوا يصلون إلى الخليفة، و لكنهم لم ينصرفوا حتى اسمعوه افحش السباب.

و فى تلك اللحظة الحرجة تقدم بختيار يطالب الخليفة بما عنده من المدخرات ليستعين بها على غزو الروم، فأجاب الخليفة:

«إن الغزو يلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى و إلىّ تدبير الاموال و الرجال، و أما الآن و ليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفايتى، و الدنيا فى أيديكم و ايدى اصحاب الأطراف، فما يلزمنى غزو و لا حج و لا شىء مما تنظر الائمة فيه، و إنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكّنون به رعاياكم، فإن أحببتم ان اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار ايضا و تركت لكم الأمر كله» و لكن هذا الجواب على ما فيه من فضيحة الخليفة لم يرض بختيار:

فما زال يوعد و يهدّد حتى اضطر الخليفة المطيع للّه إلى بيع ثيابه، و بعض انقاض داره ليجمع اربعمائة ألف درهم يسلم بها من غضب بختيار الذى اخذ من الخليفة و من الناس ما اخذ و لم يخط خطوة واحدة فى قتال الروم! و قد تجلت هذه البلايا عن قوتين تخاصمان بنى بويه: قوة الخلافة إن بقيت لها قوة، و قوة أبى احمد الموسوى الذى عزله وزير بختيار عن نقابة الاشراف.

و بعد سنتين من ذلك التاريخ سنة ۳۶۳ شبت الثورة بين الترك الديلم مرة ثانية، فسفكت الدماء، و أحرقت مدينة الكرخ حريقا ثانيا بعد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۵

الحريق الاول، و عانت بغداد اهوالا اسود من قطع الليل .. و لستم فى حاجة إلى من ينبهكم إلى خطر هذه البلايا و آثارها السود فى تشتيت الأواصر و تمزيق الصلات فما كانت الفتن تأخذ وقودها كله من الترك و الديلم، و إنما كانت تمدّ ضريمها فتنتهب ما تشاء من سواد الناس فى ارجاء العراق، و كانوا فريقين: فريقا يشايع الديلم و فريقا يناصر الأتراك و فى سنة ۳۳۶ قامت الحرب بين بختيار و عضد الدولة، و كانت لهذه الحرب نتائج دميمة فى تمزيق البصرة، فقد انضمت مضر إلى عضد الدولة و انضمت ربيعة إلى بختيار، و لم يكن يهمّ ربيعة أن ينتصر بختيار، و إنما فعلت ذلك طوعا للاحقاد الموروثة بينها و بين مضر، و كذلك استفحلت الثورة فأحرقت المحالّ، و انتهبت البضائع، و انتهكت الحرمات.

و فى تلك الأزمنة العصيبة نرى اسم أبى أحمد الموسوى بين الأسماء، و لكن فى أى صف؟ فى صف بختيار لا صف عضد الدولة، بختيار الذى عزله عن نقابة الأشراف منذ سنين، و ما نقول إن أبا أحمد الموسوى امتشق الحسام فى سبيل بختيار، و إنما قبل أن يكون رسول بختيار إلى عضد الدولة فى مطلب لم يكن يراه عضد الدولة لائقا بالملوك: فقد كان صورة دميمة من صور الشهوات.

ثم دارت الدائرة على بختيار و انتهى أمره بالقتل، و خلع الخليفة المطيع و تولى ابنه الطائع، و نال عضد الدولة من الهيبة و القوة ما فرض على الخليفة الجديد أن يمنحه خصائص لم يظفر بمثلها أحد من قبل.

و كان الظن أن يستوحش عضد الدولة من أبى أحمد الموسوى لسابقة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۶

اتصاله بعدوّه الغادر بختيار، و لكن رأيناه يعتمد عليه فى بعض شؤونه حين جدّت الحرب بينه و بين المسيطرين على الأقطار الشامية، فنفهم أن عضد الدولة يرى فى أبى أحمد قوة أدبية يحسب لها حساب، و تغفر لصاحبها بعض الذنوب.

فما الذى جدّ من الامور حتى نفض عضد الدولة يده من أبى أحمد و قضى على أملاكه بالمصادرة، و على شخصه و شخص أخيه بالقبض و الاعتقال؟

هناك أسباب كثيرة لم تفصّلها كتب التاريخ، و إنما فهمناها من ملامح الحروف و نحن نستخبر ما سطّر المؤرخون عن ذلك العهد، و يكفى أن نشير إلى كلمة عضد الدولة و هو يقول لمن سأله العفو عن أبى الصابى:

«أما العفو عنه فقد شفّعناك له عن ذنب لم نعف عما دونه لأهلينا- يعنى الديلم- و لا لأولاد نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم- يعنى أبا الحسن محمد بن عمر و أبا أحمد الموسوى و أخاه- و لكنا وهبنا إساءته لخدمته».

و من هذه الكلمة نفهم أن عضد الدولة كان نقم على أبى احمد الموسوى أشياء دعته إلى المبادرة باعتقاله، و مصادرة أملاكه ليكون عبرة لغيره من الرؤساء.

و هنا تبدأ أعوام البؤس فى حياة الشريف الرضى، ذلك الطفل الذكى النبيل الذى يواجه مكاره الحياة و هو ابن عشر سنين.

و ما ظنكم بطفل يتوقّد غيرة و حماسة، و يقبل على الدرس إقبال الرجال فيصل النهار بالليل فى درس العلوم العقلية و النقلية، و يأوى إلى بيت عامر بالكرم و الجود تعجّ أرجاؤه بأصوات الخدم و الحاشية، و يرى أباه فى الصباح و المساء و هو عماد المكروبين، و غياث الملهوفين، و يرى أساتذته يبالغون فى إكرامه لأنه ابن النقيب، ما ظنكم بطفل هذه أحواله

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۷

يمسى بعافية ثم يصبح فيرى البيت اللب، ذاهل العقل، أن أباه جرد من الحول و الطول، و ألقى به فى غياهب الاعتقال.

دعوا جانبا ما حدثتكم به فى المحاضرة الماضية من أن شهرة المتنبى هى التى أطعمت هذا الفتى فى الشعر و أنطقته به و سنّه فوق العشر بقليل، فأصدق الرأى أيها السادة، أن هذه النكبة هى التى خلقت ذلك الشاعر فى يوم واحد رجلا ينظر إلى الدنيا بعين الكهول و هو فى سن الاطفال.

إن من العسير أن تتصوروا النبوغ الشعرى فى طفل عرير، لانكم تعيشون فى أزمان لا تعرف الشقاء، أزمان يكون فيها من النبوغ أن يحفظ الطفل قصيدة و هو ابن عشر سنين، و لكن يسهل عليكم تخيّل ذلك حين تتذكرون كيف كان حال الشريف الرضى حين نقل أبوه منفيا إلى فارس، حين تتصورون كيف أمسى ذلك الطفل فقيرا ذليلا بعد الغنى و العزة، حتى صح لبعض أساتذته أن يهبه دارا يسكنها.

و ما أظلم الأيام التى تحوج طفلا مثل الشريف إلى قبول هذه الهدية بعد تمنّع و إباء. تصوروا حال الشريف و هو يحاور أستاذه فيقول: برّ أبى فكيف أقبل برك؟! فيجيب الاستاذ و هو يتوسل اليه: إن حقى عليك أعظم من حق أبيك! اى و اللّه! إن حق الاستاذ أعظم من حق الوالد، و لكن القسوة هى فى تلك الحال، حال الطفل الذى تروضه الأيام على أن يلقى أساتذته و هو غنىّ الرأس، فقير الجيب!

كانت هذه الحادثة مشئومة على الشريف الرضى و إن أحسنت فى إيقاظ ما غفا من مشاعر ذلك الطفل النبيل.

كانت مشئومة لأنها سدت عليه منافذ القول فى هجاء عضد الدولة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۸

و حرمته اللذة الطبيعية، لذة التشفى بالهجاء و السّباب: لأن عضد الدولة أخرسه و أخرس جميع أهل العراق، و سكت الطالبيون أنفسهم فلم يرتفع لهم صوت فى وجه ذلك «المستبد» الذى أودع نقيبهم غيابات السجن و الاعتقال! فإن سألتم: و كيف صح ذلك؟ فإنا نجيبكم بأن عضد الدولة شغل الناس جميعا بشواغل شريفة كان لها أحسن الوقع فى أنفس الأعداء قبل الاصدقاء، فقد أمر بعمارة ما هدمته الثورات من مرافق بغداد، فأعيدت المنازل و المساجد و الأسواق، و أدرّت الارزاق على القوّام و الائمة و المؤذنين و القرّاء، و أقيمت الجرايات لمن يأوى إلى المساجد من الغرباء و الضعفاء، و ألزم أرباب العقارات التى احترقت فى ايام الفتنة بإعادتها إلى احسن احوالها من العمارة و الزينة، فمن قصّرت يده عن ذلك اقترض من بيت المال ليرتجع منه عند الميسرة، و من لم يوثق منه بذلك أو كان غائبا أقيم عنه وكيل و أطلق له ما يحتاج اليه، فأصبحت بغداد بعد مدة يسيرة و هى أحسن مما كانت عليه من قبل.

ثم مضى عضد الدولة فى تجميل شواطىء دجلة مما يساير بغداد فقضى بأن تقوم عليها عمارات المنازل و نضيرات البساتين.

و تلفّت فرأى بغداد كانت ترويها انهار كثيرة ثم قضت عليها الثورات- انهار تنقل ماء دجلة إلى سكان بغداد، تشبه القنوات التى كانت تنقل ماء النيل إلى سكان الفسطاط- تلفّت عضد الدولة فرأى اهل بغداد يشربون مياه الآبار و هى ثقيلة، او يتكلفون حمل الماء من دجلة من مسافات طويلة، فأمر بحفر الانهار القديمة، و اقام عليها القناطر ليجتاز عليها النساء و الاطفال و الضعفاء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۹

و نظر فرأى جسر بغداد قد ضعف بحيث لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه، لا سيما الراكب لشدة ضيقه و ضعفه و تزاحم الناس عليه، فاختار له السفن الكبار المتقنة و عرّضه حتى صار كالشوارع الفسيحة و حصّنه بالدرابزينات و وكل به الحفظة و الحراس.

و امتدت نظراته الاصلاحية فشغل نفسه بالفلاحين و اقام لهم قناطر الانهار و ساعدهم على استنبات الأرض و إقامة البساتين: فشعر العراقيون بأنهم خلقوا من جديد.

و لم يكفه كل ذلك بل مضى فأنشأ المستشفيات لمداواة المرضى من الفقراء و رفع الجباية عن قوافل الحجيج، و امّن الطريق إلى الحج و اقام فيه المناهل و افاض الينابيع، و حمل الكسوة إلى الكعبة، و اطلق الصلات لأهل الشرف و المقيمين بالمدينة و غيرهم من ذوى الفاقة. و هدته السياسة الرشيدة إلى إصلاح المشهدين بالغرى و الحائر و إصلاح مقابر قريش، فاشتركت الناس فى الزيارات و المصليّات، و كادوا ينسون ما توارثوه من العداوات. و هدته السياسة ايضا إلى بسط الرسوم للفقراء و للفقهاء و المفسرين و المتكلمين و المحدّثين و النسّابين و الشعراء و النحويين و العروضيين و الأطباء و المنجمين و المهندسين.

تلكم ايها السادة خلاصة ما صنع عضد الدولة فى مدينة بغداد و ارجاء العراق.

فماذا يصنع الشريف لو فكر فى هجاء رجل مثل هذا الداهية! ماذا يصنع و قد تطوع اهل بغداد انفسهم لخلق الأساطير و الأقاصيص فى الاشادة بأعمال هذا المصلح العظيم.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۰

ماذا يصنع و الالسنة كلها تلهج بالثناء على عضد الدولة و تراه اشرف من شهدت بغداد بعد عصور المصلحين من الخلفاء.

ماذا يصنع فى هجاء ملك «حمى البلاد من كل مفسد، و حفظ الطرق من كل عائث، و هابه الحواضر و البوادى ».

لقد نسى الناس ابا احمد الموسوى و نسوا اخاه، فليظلّا فى غياهب الاعتقال، و ليشرب الشريف الرضى كؤوس الصاب و العلقم إن شاء.

و لكن عضد الدولة سيموت كسائر الاحياء، و قد مات فى الثامن من شوال سنة ۳۷۲، فماذا يصنع الشريف الرضى و قد وصل اليه هذا النبأ «السعيد».

كان فى ذلك العهد شابا مراهقا يجاوز الثلاث عشرة بقليل، و لكنه كان يفهم ان موت عضد الدولة لن يكون باب الفرج لأبيه، لانه كان يرى الظروف السياسية لا تزال حالكة السواد، و كان يدرك ان ابناء عضد الدولة سيجرون على سنة ابيهم فى معاملة من كان يعادى او يصادق من الرجال.

فلم يبق إلا ان يخاطب اباه بهذه الابيات:

أبلغا عنى الحسين ألوكا ان ذا الطود بعد عهدك ساخا

و الشّهاب الذى اصطليت لظاهعكست ضوءه الخطوب فباخا

و الفنيق الذى تدرّع طول الأرض خوّى به الردى فأناخا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۱ إن ترد مورد القذى و هو راضفبما يكرع الزلال النقاخا

و العقاب الشّغواء اهبطها النّيقو قد ارعت النجوم سماخا

اعجلتها المنون عنا و لكنخلّفت فى ديارنا افراخا

و على ذلك الزمان بهم عادغلاما من بعد ما كان شاخا

هذا كل ما استطاع الشريف ان يقوله يوم مات عضد الدولة، فهو يراه فنيقا هلك، و شهابا هوى، و جبلا ساخ، و لكنه يتخوف العواقب: لان تلك العقاب تركت افراخا من الجوارح عاد بها الزمان غلاما بعد ان كان اكتهل و شاب.

و الواقع ان الشريف الرضى عجز عن اعلان الشماتة بالقصائد الطوال، لأن موت عضد الدولة احاطت به قوتان: قوة الرأى العام، و قوة ابنه صمصام الدولة.

اما قوة الرأى العام فتمثّلها الكلمات التى قالها اقطاب البيان فى ذلك الحين و قد سجلها التوحيدى فقال: لما صحت وفاة عضد الدولة كنا عند ابى سليمان السجستانى، و كان القومسى حاضرا و النوشجانى و ابو القاسم غلام زحل و ابن المقداد و العروضى و الاندلسى و الصيمرى فتذاكروا الكلمات العشر المشهورة التى قالها الحكماء العشرة عند وفاة الاسكندر.

فقال الاندلسى: لو تفوّه مجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يؤثر عنكم.

فقال ابو سليمان: ما احسن ما بعثت عليه. اما انا فاقول: لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، و اعطاها فوق قيمتها، و حسبك انه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۲

طلب الربح فيها فخسر روحه.

و قال الصيمرى: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، و من حلم بها فهذا انتباهه و قال النوشجانى: ما رأيت غافلا فى غفلته و لا عاقلا فى عقله مثله، لقد كان ينقض جانبا و هو يظن أنه مبرم، و يغرم و هو يظن أنه غانم.

و قال العروضى: أما إنه لو كان معتبرا فى حياته، لما صار عبرة فى مماته، و قال الأندلسى: الصاعد فى درجاتها إلى سفال، و النازل من درجاتها إلى معال.

و قال القومسى: من جدّ للدنيا هزلت به، و من هزل راغبا عنها جدّت له، انظر إلى هذا كيف انتهى أمره، و إلى أى حضيض وقع شأنه، و إنى لا أظن ان الرجل الزاهد الذى مات بالشونيزية أخفّ ظهرا و أعزّ ظهيرا من هذا الذى ترك الدنيا شاغرة، و رحل عنها بلا زاد و لا راحة.

و قال غلام زحل: ما ترك هذا الشخص استظهارا بحسن نظره و قوته، و لكن غلبه ما منه كان، و بمعونته بان.

و قال ابن المقداد: إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم، و إن ريحا زعزعت هذا الركن لعصوف و هذه الكلمات- و إن كان ظاهرها الشماتة- تمثل قوة الرأى العام أصدق تمثيل، فهم كانوا يرون عضد الدولة شبيها بالاسكندر الذى دوّخ عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۳ ممالك الارض، وطئت حوافر خيله أمنع البقاع فى أرباض الشرق.

و مع أن عضد الدولة لم يملك العراق غير خمس سنين و نصف فقد استطاع أن يملك قلوب العراقيين، و أن يشغلهم بالعلم و الحضارة، و أن ينسبهم ما صنعت عواصف السنين بالأنفس و الاموال.

أما القوة الثانية التى صدمت الشريف الرضى و حرمته لذة التشفى بموت عضد الدولة فهى قوة صمصام الدولة. و كان هذا الملك الجديد على جانب من صحة الرأى فى بداية أمره، فقد أخفى على الناس موت أبيه عضد الدولة إلى أن تستقيم له الامور، فلما تمّ له من ذلك ما أراد أعلن موت أبيه و أعلن فى الوقت نفسه إلغاء الضرائب التى كان فرضها أبوه، و هى ضرائب كان يضجّ منها الناس فى السرّ، و يتهيبون التضجر منها فى العلانية.

و كذلك رأى الشريف الرضى أن الدنيا بالنسبة إليه انتقلت من قبح إلى قبح، و أن سجن أبيه سيطول، فأخفى ضغائن قلبه، و أقبل على شؤونه العاديّة و هو كاسف البال حزين.

و لكن وقع بعد ذلك ما لم يكن فى الحسبان: فقد كان لعضد الدولة ابن آخر هو شرف الدولة، و كان لهذا الإبن رجل من الخواص يقيم فى بغداد، فلما وصلت اليه الاخبار السرية بأن عضد الدولة مات و أن صمصام الدولة يخفى موته بادر ذلك الرجل و كتب إلى شرف الدولة بموت أبيه. و كان شرف الدولة يقيم بكرمان، فكتم أمره و سار إلى فارس، ثم أعلن موت أبيه و جلس للعزاء و أخذ

البيعة على أوليائه و أطلق لهم ما جرت به العادة من العطاء.

و على هذه الصورة ظهرت فى دنيا السياسة لذلك العهد قوتان: قوة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۴

شرف الدولة فى فارس و قوة صمصام الدولة فى العراق.

أما صمصام الدولة فقد اصطنع مذاهب أبيه فكان فى الاغلب يعادى من عادى و يصادق من صادق، و أما شرف الدولة فقد نظر إلى أعمال أبيه بعين المتبصر الرشيد، و كان فى بواكير ما صنع الإفراج عن أبى أحمد الموسوى و أخيه أبى عبد اللّه و جماعة من الأشراف (بعد أن طال بهم الاعتقال، و ضعفت فى خلاصهم الآمال، و كما تطرق النوائب من حيث لا يحتسب، فقد يأتى الفرج من حيث لا يرتقب ).

و هنا تحدثكم خواطركم بأن الشريف الرضى اندفع يهدر بالشعر فرحا بنجاة أبيه من غياهب الاعتقال، ثم تأخذ منكم الدهشة كل مأخذ حين تعلمون بأنه طوى فرحه فى صدره و سكت عن هذه القضية زمنا غير قليل.

فما سبب ذلك السكوت البليغ؟

سبب ذلك، أيها السادة، أن صمصام الدولة كان ينقم من أخيه شرف الدولة كل شىء فكان يرى الإفراج عن أبى أحمد الموسوى ضربا من العقوق لعضد الدولة الذى اعتقله و صادر أملاكه، و كان عضد الدولة أساس الميراث للاخوين المسيطرين فى فارس و العراق، و لا بدّ أن يكون الشريف الرضى قد خشى أن يكون عطف شرف الدولة على أبيه سببا من أسباب الوحشة بين أسرته و بين صمصام الدولة القابض على العراق، و كذلك كتم سروره بنجاة أبيه و أخفى عواطفه نحو شرف الدولة إلى أن يزول العبوس من وجه الزمان.

و فى خلال تلك السنين كانت الجفوة متصلة بين شرف الدولة و صمصام الدولة، ثم بلغ الشر أشده فى سنة ۳۷۶ فأغار شرف الدولة على أطايب ما

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۵

يملك صمصام الدولة، و هاجت بينهما الحرب، فانتصر شرف الدولة و قبض على أخيه و دخل بغداد دخول الفاتحين.

و باندحار صمصام الدولة صار من حق أبى أحمد الموسوى أن يعود إلى بغداد، و يرى ابنه المحبوب الذى نظم من القصائد فى التوجع لأبيه ما لا ينظم مثله إلا أبرّ الأبناء فى أكرم الآباء. عبقرية الشريف الرضى ؛ ج۱ ؛ ص۱۰۵

ها السادة:

أترونني اضجرتكم بهذه الصفحات الدامية من التاريخ؟

لقد اقذيت عينىّ تحت المصباح ليالى كثيرة لا راجع حوادث تلك السنين و استخلص منها هذه الصفحات، و ما اظننى ظلمت التاريخ حين وجهته على غير ما ينتظر المؤرخون، فقد دوّنوا ما دوّنوا و فهمت ما فهمت، و لكل باحث اسلوب.

و لا- يعنينى إلا- ان اصل بكم إلى تعرّف نفسية الشريف التى صبغتها اعوام البؤس بالدم النجيع، لا- يعنينى إلا ان تعرفوا كيف صح لذلك الرجل ان ينظم عشرات القصائد فى مدح أبيه. و تلك خصلة لا نجدها بهذا الوضوح عند غيره من الشعراء.

إن الأدب، ايها السادة، لا يستطيع ان يستقل عن التاريخ، و كيف و هو من صور التاريخ؟

و قد استطعنا بهذه الجولة السريعة ان نعرف الوان الأيام التى تفتحت فيها عبقرية الشريف الرضى، و فهمنا كيف كان يرى الدنيا بأعين الكهول و هو فى نضرة الشباب. فلنسجل مع ذلك ان الشريف افاد من اعوام البؤس نعمة باقية، فقد احب اباه حبا لم يسمع بمثله الناس، و صار يتلهف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۶

علیه تلهفا موجعا، و ینظم فیه اشعارا لها رنین الاسجاع، اسجاع الحمائم الباکیة فی إثر الألیف المفقود.

و ما کان اعتقال والد الشریف إلا نکبة حلّت بذلک البیت:

فقد ذهبت دنیا اولئک الناس مرة واحدة، إذ سجن سید البیت، ثم صودرت الأملاک، و تتابعت الرزایا علی صورة تنبت الشجی فی اقسی القلوب.

و زاد فی تلک المأساة انها صادفت فتی رقیق الحس، مرهف القلب، شاعر الروح، فصیّرته وترا حنّانا یجید تصویر الأسی و ترجیع الأنین.

و ضاعف من نکد تلک البلیة أن ذلک الفتی کان یری الکفر اهون من المکسب الخسیس: فساقه التصون إلی الضنک، و لم یبق امامه و امام اخیه غیر التصرف فیما کانت تملک امهما الرؤوم، و قد قسا الدهر و عنف فاضطرّ تلک السیدة إلی بیع املاکها و حلیّها لتضمن لولدیها العزیزین عیش الکفاف إلی أن یمن اللّه علی زوجها بالخلاص.

ایها السادة:

لم أرد ان أطیع القلم و انا اکتب هذه المحاضرة فأغزو قلوبکم بالحزن علی رجل صار فی ذمة التاریخ، و یکفی ان تعرفوا ان صاحبنا لم یقل الشعر الجیّد و هو ابن عشر سنین إلا لأن الزمن رماه فی طفولته بما یمنح الأطفال عقول الکهول، و سترون فی اللیالی المقبلة انه بدأ یشکو الشیب و هو فی سن العشرین «و شیب الرأس من شیب الفؤاد».

و الآن نواجه اشعار الشریف فی مدح ابیه فنقول:

عبقریة الشریف الرضی، ج۱، ص: ۱۰۷

إن الشریف مدح اباه بأکثر من اربعین قصیدة. و اشعاره فی مدح أبیه تنقسم إلی ثلاث طوائف: الطائفة الاولی فی التوجع لأبیه و هو سجین، و الطائفة الثانیة فی تهنئة ابیه بالخلاص ورد أملاکه الیه، و الطائفة الثالثة فی تهنئته بالأعیاد بعد ان لان الزمان. و لکل طائفة من هذه الاشعار خصائص: فالطائفة الاولی تصور الحزن و الجزع و التفجع، و الثانیة یغلب علیها الابتسام و لکنها تفیض بالسمّ الزّعاف فی الثورة علی الناس، و الثالثة تخلع علی ابیه رداء الملوک: فهو یدخل علیه فی کل عید بقصیدة کما یصنع الشعراء فی تحیة الخلفاء و الملوک.

و قبل ان ندخل فی تحلیل هذه القصائد نوجه انظارکم إلی شرح الظاهرة الادبیة التی تجدونها فی دیوان الشریف الرضی، فأنتم تذکرون ان جامع الدیوان یسمی قصائده القدیمة «قواذف» و یذکر فی اغلب الاحیان ان الشریف حذف من تلک «القواذف» اشیاء.

و تعلیل هذه الظاهرة لا یصعب علی من یتذکر الظروف السیاسیة التی فصلناها فی صدر هذه المحاضرة، فتلک «القواذف» کانت بالتأکید تمسّ بنی بویه، ثم هذّبت طلبا للسلامة من شر أولئک الملوک.

و ینبغی ایضا ان ننص علی خصائص الاشعار التی نظمها الشریف بین ۳۶۹ و ۳۷۶ فهذه القصائد کان یغلب علیها التبرم و الضجر و الاکتئاب، و قد حوّلته الحوادث إلی رجل ودود یعطف علی مصائب الناس، لا سیما المنکوبین بقسوة الملوک.

و من شواهد ذلک قصیدته الهمزیة إلی صدیق حلّت به نکبة، و لم یذکر جامع الدیوان ما هی تلک النکبة، و لکننا نفهم انها نکبة سیاسیة، إذ نراه یقول:

عبقریة الشریف الرضی، ج۱، ص: ۱۰۸ خطوب لا یقاومها البقاءو احوال یدبّ لها الضّراء

و دهر لا یصحّ به سقیمو کیف یصح و الأیام داء

و أملاک یرون القتل غنماو فی الأموال لو قنعوا فداء

هم استولوا علی النجباء مناکما استولی علی العود اللّحاء

مقام لا یجاذبه رحیلو لیل لا یجاوره ضیاء

سيقطعك المثقف ما تمنى و يعطيك المهنّد ما تشاء

بلونا ما تجيء به الليالىفلا صبح يدوم و لا مساء

و هى قصيدة كثيرة الفنون، نقف منها عند قوله فى تعزية ذلك المنكوب.

و ما حبستك منقصة و لكن كريم الزاد يحرزه الوعاء

فلا تحزن على الأيام فينا إذا غدرت و شيمتنا الوفاء

فإن السيف يحبسه نجادو يطلقه على القيم المضاء

و هو بهذه الابيات يمدح السجن، او يتكلف مدح السجن، لأن أباه مسجون.

و فى تلك المدة تدلنا اشعار الشريف على ان ناسا كانوا اجترأوا على شتمه و تجريحه، فكان يتجمّل و يتحلم صونا لنفسه عن التسلح بالسباب، كان يقول:

ما يطلب الدهر و الأيام من رجل يعوذ بالحمد إشفاقا على النعم

إذا اقتضته الأمانى بعض موعده غطّى بستر العطايا عورة العدم

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۰۹ من مدّ معصمه مستعصما بيدى عصمته باخاء غير منجذم

و من أشيّعه يأمن من لوائمه و لو رموه بجرّاح من الكلم

و لو هتكت حجاب الغيب لافتضحت أجفان كل مريب اللحظ متهم

كفى الذى سبنى أنى صبرت له فاستنصر العذر و استحيا من الجرم

بردى عفيف إذا غيرى لفجرته كانت مناسح برديه على التهم

إذا العدوّ عصانى خاف حدّ يدى و عرضه آمن من هاجرات فمى

جعلت سمعى على قول الخنا حرما فأىّ فاحشة تدنو الى حرم

و ما نحب ان نطيل فى سرد الشواهد، فهى كثيرة فى الديوان، و يكفى أن ندل على ملامحها بهذه التوجيهات، و إن كان الشريف أفصح عنها أبلغ إفصاح و هو يقول فى مخاطبة الصاحب اسماعيل بن عباد:

فتى سنّه عن خمس عشرة حجة تربّى له فضلا و مجدا و محتدا

فتىّ الصبا كهل الفضائل ..إلى العمر إلا احتلّ فى الفضل مقعدا

تفرّد لا يفشى إلى غير نفسه حديثا و لا يدعو من الناس منجدا

و لا طالبا من دهره فوق قوته كفانى من الغدران ما نقع الصّدى

سأحمد عيشا صان وجهى بمائه و إن كان ما أعطى قليلا مصرّدا

و قالوا لقاء الناس أنس و راحة و لو كنت أرضى الناس ما كنت مفردا

و نعود فنذكر ان اول قصيدة قالها الشريف فى التوجع لأبيه هى الدالية:

نصافى المعالى و الزمان معاندو ننهض بالآمال و الجدّ قاعد

و قد نظمها و سنّه فوق العشر بقليل، نظمها و هو فى لفح العبارة القاسية التى فاه بها المطهر بن المطهر بن عبد اللّه وزير عضد الدولة حين اعتقل والد الشريف فقد قال: إلى كم تدلّ علينا بالعظام النّخرة!

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۱۰

و كان المنتظر أن تكون هذه القصيدة ضعيفة لانها من نسج شاعر طفل و لكن قسوة الحوادث أمدت الطفل بعقل الكهول، و أضافته إلى فحول الشعراء.

تقع هـذه القصـيدة فى ثمانيـة و سـبعين بيتا، فهو فيها طويل النفس، و قـد عرّض فيها بالخليفـة العباسـى و لوّح له بعظمـة الفاطميين فى مصر، و كان ذلك يومئذ من المحظورات، و انظروا كيف يقول:

و طاغ يعير البغى غرب لسانهو ليس له عن جانب الحق ذائد

شننت عليه الحق حتى رددتهصموتا و فى أنيابه القول راقد

يدلّ بغير اللّه عضدا و ناصراو ناصرك الرحمن و المجد عاضدا

يعيّر ربّ الخير بالى عظامهألا نزّهت تلك العظام البوائد

و لكن رأى سبّ النبىّ غنيمةو ما حوله إلا مريب و جاحد

و لو كان بين الفاطميين رفرتعليه العوالى و الظبّا و السواعد

و فى هذه القصيدة تحدّث الشريف عن سجن أبيه و عمه حديث الحكماء.

و هناك قصائد بلا تاريخ، منها قصيدة:

رأيت المنى نهزة الثائرو سهم العلا فى يد القامر

و قصيدة:

أما ذعرت بنا بقر الخدورو غزلان المنازل و القصور

و قصيدة:

بلاء القلب ناظرهو أنجى الناس كاسره

و قصيدة:

شيمى لحاظك عنا ظبية الخمر ليس الصّبا اليوم من شأنى و لا وطرى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۱

و قصيدة:

لا ترقدنّ على الأذىو اعزم كما عزم ابن موسى

و قصيدة:

وفى بمواعيد الخليط و أخلفواو كم وعدوا القلب المعنّى و لم يفوا

و قصيدة:

بينى و بين الصوارم الهممما ساعد فى الوغى و لا قدم

و قصيدة:

بمجال عزمى يملا الملوانو تضل فيه بوائق الأزمان

و قصيدة:

من لى بر عبلة من البزلترمى إليك معاقد الرحل

فهـذه القصائـد التسع بلاـ تاريـخ، و لكن الـذى يتـذكر ما شـرحناه آنفا يسـتطيع ان يعرف تواريخها بلا عناء، فليجعلها تلاميـذنا فى دار المعلمين العالية مجالا للدرس و التحقيق.

ثم ننظر فنراه نظم ثلاث قصائد سنة ۳۷۴، الأولى قصيدة:

إذا احتبى بالعشب الوادىو انحلّ فيه الواكف الغادى

و الثانية قصيدة:

بغير شفيع نال عفو المقادرأخو المجد لا مستنصرا بالمعادر

و الثالثة نظمها بعد ان سنحت الفرصة بالاجتماع مع أبيه عند قدومه من بلاد تدمر، كذلك يقول جامع الديوان، و لا نعرف ما هو قدوم الشريف من بلاد تدمر، ذلك القدوم الذى يسمح له بالاجتماع مع أبيه فى بلاد فارس؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۲

و لكن لا بأس من الموافقة على انه استطاع ان يرى أباه فى ذلك العهد، فنحن فى سنة ۳۷۴ و كان صمصام الدولة بدأ يشهد ضعف سلطانه فى العراق.

و فى هذه القصيدة يظهر شىء من البشاشة، فنرى الشريف يتغزل فيقول:

و ماء تشيه الريح كلّ عشيةكما رقم البرد الصّبيغ يمانى

مررت بغزلان على جنباتهفأطلقن دمعى و احتبلن جنانى

و عاجلنى لوم الرفيقين فى الهوىعشية مالى بالفراق يدان

يقولان أحيانا بقلبك نشوةو ما علما أن الفراق سقانى

و كم غادر البين المفرّق من فتىيمسّح قلبا دائم الخفقان

و ما الحبّ إلا فرقة بعد ألفةو إلا حذار بعد طول أمان

و فى هذه القصيدة يعرّض الشريف بمن خذلوه من الأقارب، و يذكر بعض ما لاقى من الخطوب، ثم يمضى إلى مدح أبيه فيقول:

و أبيض من عليا معدّ كأنماتلاقى على عرنينه القمران

إذا رمت طعنا بالقريض حميتهو إن رمت طعنا بالرماح حمانى

يجود إذا ضن الجبان بنفسهو يمضى إذا ما زلّت القدمان

بصير بتصريف الاعنة إن سرىليوم نزال أو ليوم رهان

ترامى به الأيام و هو مصمّمكما يرتمى بالماتح الرجوان

إذا ما احتبى يوم الخصام كأنمايحدثنا عن يذبل و أبان

أبا أحمد أنت الشجاع و إنمانجرّ العوالى عرضة لطعان

و لما غوى الغاوون فيك و فرّجتضلوع على الغل القديم حوانى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۳ نجوت من الغمّاء و هى قريبةنجاء الثريا من يد الدّبران

و غيرك غضّ الذّل من نجواتهو طامن للأيام شخص مهان

و حال الأذى بين المراد و بينهكما حيل بين العير و النّزوان

و كان كفحل البيت يطمح رأسهفألقى على حكم الردى بجران

و هذا تعريض جارح برجال كان يعرفهم الشريف، رجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يثبتوا على البأساء، و قهرتهم الحوادث على التنصل من مذابهم السياسية و قد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين فى ذلك العهد، و لكنا خشينا أن نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين، و أول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوى، و كان شخصية هائلة تمتلك جماهير الناس فى الكرخ و بغداد أقوى امتلاك، و قد اعتقل مع أبى أحمد الموسوى و صودرت أملاكه فكان فى خزائنه من الذهب مليون دينار، و هو أضخم مبلغ للثروة الفردية فى ذلك الحين، و هذا الرجل سكت عنه الشريف الرضى حين توجّع لأبيه و عمه فهل يمكن الظن بأنه دخل فى مكاتبات سرية مع عضد الدولة لينعم بالخلاص:

ذلك ظنّ من الظنون لا يقوم عليه دليل، و يكفى أن نسجل أن ذلك الرجل كان له فى تلك العهود مكان مرموق، و أن من المحتمل

أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض و فى سنة ۳۷۵ نظم الشريف ثلاث قصائد، الاولى قصيدة:

يا دار ما طربت إليك النوقإلا و ربعك شائق و مشوق

و هى من روائع المدائح.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۴

و الثانية قصيدة:

وقف على العبرات هذا الناظرو كفاه سقما أنه بك ساهر

و هى من طلائع الفرح، لأنه نظمها و قد توجّه أبوه من فارس فى صحبة شرف الدولة، و هى قصيدة جرى فيها على مذاهب الشعراء فابتدأها بالتشبيب ثم تخلص إلى مدح أبيه فقال:

أغضيت عن وجه الحبيب تكرماو أريته أن الجفون كواسر

هب لى و حسبى نظرة أرنو بهافمقرها وجه الحسين الزاهر

فلثمّ أبلج إن أهلّ جبينهجمحت إليه خواطر و نواظر

قرب الغمام فعن قريب ينثنىفيبلّ مربعك العريض الماطر

و الثالثة قصيدة:

من الظلم أن نتعاطى الخمارا و قد سلبتنا الهموم العقارا

و قد نظمها حين وصل أبوه و عمه إلى شيراز، و فيها يقول فى تعزيتهما عن ضياع الأملاك:

إذا سالم الدهر نفسيكمافلا حارب الدهر إلا اليسارا

أصابتكما نكبة فانجلتو عاودتما العزّ إلا الديارا

و دهر يردّ علينا العلاء أجدر به أن يردّ الغفارا

ألم تريا من رمته الخطوب يمينا تنازعه أو يسارا

لئن جلتما فى مكرّ الزمانفبوّاكما من مداه العثارا

فما يقرع الدهر إلا الحليمو لا ينكث الخرق إلا الوقارا

تفرّق مالكما فى العداو شخصكما واحد لا يمارى

و هناك قصيدة غير مؤرّخة نظمها الشاعر و أنفذها إلى أبيه قبل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۵

دخوله بغداد بأيام يسيرة على يد بعض أصحابه، فهو كان يعرف معنى التحية تحية الراجع إلى وطنه و هو فى الطريق، كما نرسل برقيات التحية فى هذه الأيام ليفرح بها القادمون و هم على متون البواخر، و هذه القصيدة ليست من الطوال، و لكنها على قصرها تصوّر شوقه إلى أبيه، شوق الطفل المضيّع إلى الوالد العطوف، فهو يذكر كيف تركه أبوه و هو نبت ضعيف و يشير إلى ما صنعت به الأيام فيقول فى آخر القصيدة:

لما ذكرتك عاد قلبى شوقهفبكين عنه مدامع الأقلام

خلّفتنى زرعا فطلت و إنماذاك الغرار نمى إلى الصّمصام

أكدت على الأرض من أطرافهاو تدرّعت بمدارع الإظلام

و عهدتها خضراء كيف لقيتهاأبصرت فيها مسرحا لسوامى

أشكو و أكتم بعض ما أنا واجدفأعاف أن أشكو من الإعدام

ثم يطلع البدر بعد طول الاحتجاب، و يرى الفتى أباه فى بغداد سنة ۳۷۶ و لكن كيف رآه؟ رآه شاحب اللون، هزيل الجسم، قد نالت منه ظلمات الاعتقال، فيتمثله فى حالين: حال البؤس، و حال النعيم، و تزيده أخيلة الماضى المحزن تعلقا بذلك الشيخ الجليل الذى يعود إلى وطنه عود الجراز المفلول.

و لا يعلم إلا اللّه كيف خفق قلب ذلك الفتى حين رأى أباه، فقد كان لا يزال طفلا، و كانت المعانى السّود و البيض تلذع قلبه لذعا عنيفا، و العواطف العاصفة لا يعرفها غير الأطفال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۶

و لكن قصيدته فى استقبال أبيه تدلنا على بعض ما جاش فى صدره من المعانى، و لننظر كيف يقول:

طلوع هداه إلينا المغيبو يوم تمزّق عنه الخطوب

لقيتك فى صدره شاحباو من حلية العربىّ الشّحوب

إليه تمجّ النفوس الصدورو فيه تهنّى العيون القلوب

تعزّيت مستأنسا بالعبادو الليث فى كل أرض غريب

و أحرزت صبرك للنائباتو للداء يوما يراد الطبيب

لحا اللّه يوما أرانا الدياريندب فيها البعيد القريب

و ما كان موتا و لكنهفراق تشقّ عليه الجيوب

لئن كنت لم تسترب بالزمانفقد كان من فعله ما يريب

رمى بك و الأمر ذاوى النباتفآل و غصن المعالى رطيب

و لما جذبت زمام الزمانأطاع و لكن عصاك الحبيب

و لما استطال عليك الزمامو ذلل فيك المطىّ اللغوب

رجوت البعاد على أنهكفيل طلوع البدور الغروب

رحلت و فى كل جفن دمعليك و فى كل قلب و جيب

و لا نطق إلا و من دونهعزاء يغور و دمع ربيب

و أنت تعللنا بالإيابو الصبر مرتحل لا يؤوب

و سرّ العدافيك نقص العقولو أعلم أن لا يسر اللبيب

أما علم الحاسد المستغرّأن الزمان عليه رقيب

قدمت قدوم رقاق السحابتخطر و الربع ربع جديب

فما ضحك الدهر إلا إليكمذبان فى حاجبيه القطوب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۷

إلى أن يقول:

لحياك منى عند اللقاءخلق عجيب و خلق أديب

و خلفتنى غرس مستثمرفطال و أورق ذاك القضيب

ذخرت لك الغرر السائراتيعبّر عنها الفؤاد الكئيب

تصون مناقبك الشارداتأن تتخطى إليها العيوب

و إنى لأرجوك فى النائباتإذا جاءنى الأمل المستثيب

و فى تلك السنة يظهر لون جديد فى شعر الشريف: هو مدح بنى بويه، و كان من قبل لا يمدح غير الخلفاء. لقد كان ذلك الفتى يبغض بنى بويه بغضا شديدا. و لكن ذلك البغض هدأ بعد أن رأى شرف الدولة الذى أنقذ أباه من الاعتقال.

و كذلك نراه ينظم قصيدة جيدة فى مدح ذلك الملك، و لكنه لا ينسى أن ينص على سبب المدح فيقول:

هذا أبى و الذى أرجو النجاح بهأدعوه منك طليق الهم و الجذل

لولا ما انفسحت فى العيش همتهو لا أقرّ عيون الخيل و الخول

حططته من ذرى صمّاء شاهقةمرّ الزمان عليها غير محتفل

تلعاء عالية الأرداف تحسبهارشاء عادية مستحصد الطّول

تلقى ذوائبها فى الجوّ ذاهبةيلفّها البرق بالأطواد و القلل

و أنت طوقته بالمنّ جامعة قامت عليه مقام الحلى و الحلل

أوسعته فرأى الآمال واسعةو كلّ ساكن ضيق واسع الأمل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۸ جذبت من لهوات الموت مهجتهو كان يطرف فى الدنيا على وجل

و ما كان حساما أغمدته يدثم انتضته اليد الاخرى على عجل

فاقذف به ثغر الأهوال منصلتاو استنصر الليث إن الخيس للوعل

و لا تطيعنّ فيه قول حاسدهإن العليل ليرمى الناس بالعلل

أولى بتكرمة من كان يحمدهاو الحمد يقطع بين الجود و البخل

كفاك منظره إيضاح مخبرهفى حمرة الخدما يغنى عن الخجل

تحمّل الشرف العالى و كم شرفغطّى عليه رداء العىّ و الخطل

أيها السادة:

لقد زفّت سنة ۳۷۶ أعظم بشرى إلى الشريف، إذ سمح له الدهر برؤية أبيه فى بغداد، و لكن هناك بشرى ثانية، فما هى تلك البشرى؟ أهى ردّ الاملاك التى صودرت بعد الاعتقال؟ هيهات، فلن تردّ الاملاك إلا بعد سنين، فما هى تلك البشرى إذن؟

هى موت المطهر بن عبد اللّه وزير عضد الدولة، و قد شمت الشريف فى موت ذلك الوزير الذى اعتقل أباه و عبّره الإذلال بالعظام النّخرات، عظام أهل البيت.

و أعيذكم أن تؤاخذوا الشريف على الشماتة فى ميت، فللشريف عذره و هو أنه لا يزال فتى غض تبصّره الايام بمقامات الكلام، و موقفنا فى هذه المحاضرات موقف المؤرخ للافكار الادبية، فلا بأس من الاشارة إلى هذا الحادث الذى كنا نتمنى أن لا تزلّ فيه قدم الشريف.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۹

و لكن من الذى يوجب احترام عظام ذلك الميت بعد أن أهان عظام أهل البيت؟ هى غلطة بغلطة، و جزاء سيئة سيئة مثلها، و ليس الشريف من المعصومين.

و فى الحق أنى أنكرت تلك الشماتة، و لو كنت رأيت الشريف الرضى لرجوته تمزيق هذه القصيدة! و من يدرى فلعلى لو كنت مكانه لوقعت فى أقبح مما وقع فيه، و هل للشعراء عقول؟

ابتدأ الشريف تلك القصيدة بمدح أبيه، فلما وصل إلى التعريض بذلك الميت قال:

و جبان لويت عنه فأمسىو جل العين من قراع الرقاد

مستطيرا كأن أهداب جفنيهعلى الناظرين شوك القتاد

لا أقال الإله من خانك العهدو جازاك بغضة بالوداد

ظن بالعجز أن حبسك ذلّو المواضى تصان بالإغماد

قصر الدهر من ذراه و قد كانبتلك الظبّا طويل النجاد

و أذلّ الزمان بعدك عطفيهو قد كان من أعز العباد

كنت ليثا و كان ذئبا و لكنلا تلذّ الأشكال بالأضداد

و تمادى بما جناه على الأيام حتى جنى عليه التمادى

سمحت كفه به للمنايابعد أن لم يكن من بالأجواد

ظن أن المدى يطول و فى الآمالمالا يعان بالأجداد

هكذا تدرك النفوس من الاعداءبرد القلوب و الأكباد

كل حبس يهون عند الليالىبعد حبس الارواح فى الاجساد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۰ و تداركت ما تمنيت و الاحشاءمزورة على الاحقاد

نلت بعضا و سوف تدرك كلاإنما السيل بعد قطر العهاد

ايها السادة:

فى هذا البيت الاخير ترون الشريف يصرّح بأن أباه لم ينل بعودته من فارس كل شىء، و هذا حق، فقد ضاعت من أبى أحمد الموسوى أشياء، ضاعت منه الاعمال الرسمية و كانت من أعظم مظاهر التشريف، و هى نقابة الطالبيين، و إمارة الحج، و النظر فى المظالم، و ضاعت منه الموارد الاساسية للرزق، و هى الاملاك التى صودرت و حرم منها أطفاله منذ سنين أما الاعمال الرسمية فلم تعد اليه بعودته إلى بغداد، و إنما طاولتها الظروف فلم تعد إلا فى سنة ۳۸۰، و كان لرجوع تلك المناصب إلى أبى أحمد الموسوى نشوة طرب رقصت لها أخيلة الشعر فى خواطر الشريف الرضى فاندفع يقول:

أنظر إلى الايام كيف تعودو إلى المعالى الغرّ كيف تزيد

و إلى الزمان نبا و عاود عطفهفارتاح ظمآن و أورق عود

نعم طلعن على العدو بغيظهفتركنه حمر الجنان يميد

قد عاود الايام ماء شبابهافالعيش غضّ و الليالى غيد

إقبال عز كالأسنّة مقبلىمضى و جدّ فى العلاء جديد

و علا لأبلج من ذؤابة هاشمىثنى عليه السؤدد المعقود

قد فات مطلوبا و أدرك طالباو مقارعوه على الامور قعود

خسأت عيونهم و قد طمحت لهعدد عراض فى العلا و عديد

ما صال إلا انجاب غىّ مظلمو اندقّ من عمد الضلال عمود

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۱ يأسو و يجرح فالجراحة عزمةتصمى و آسيها الندى و الجود

سطو و صفح يطرقان عدوّهأبدا و وعد صادق و وعيد

عن أىّ باع فى العلاء رميتملىثا تقيه مقادر و جدود

طاشت سهامكم و فارق نزعهسهم إلى قلب العدوّ سديد

حسدوك لما فات سعيك سعيهمصعدا فما نقع الغليل حسود

و رأوا بوائجها تلوح و ريحهاتسرى و عارضها الغزير يجود

عجل الزمان بها اليك و حطّمت‌بين الضلوع ضغائن و حقود

قد كنت أخشى أن يقول مخبّركادوا و ما أعطوا المراد فكيدوا

أو أن يقال أقارب نزعت بهم‌ظنن فكلّ بالعقوق بعيد

سئلوا العواد فجانبوه فعاودواو ألان إذ ملك الزمام و قيدوا

لولا الألية منك أن لا تنتضى‌عضبا يقوم مقامه التنفيد

لسننت فى الأقوام غير ملوّم‌ما سنّ يوم ابن الزبير يزيد

اليوم أصحرت الضغائن و انجلت‌تلك الموارن و الجاه السود

و تراجعوا عصبا إليك و خلفهم‌عنف السباق و للقلوب وئيد

فاصفح فسوف ينال صفحك منهم‌ما لا ينال العضب و هو حديد

و هى قصيدة على جانب عظيم من السلاسة و القوة، و قد سكتنا عن رواية الابيات الخاصة برجوع تلك المناصب، و أثبتنا الابيات التى تعبر عن الثورة على الأقارب، لان هذه الابيات ستنفعنا فيما بعد، حين نبحث

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۲۲

عن السبب فى شراسته و هو يخاطب الاقرباء.

أما الاملاك التى صودرت فسيطول عليها التفجع، و لكن سيردّ منها جزء فى سنة ۳۸۶ و جزء فى سنة ۳۹۶، و معنى ذلك أن أبا أحمد الموسوى سيظل فى انتظار أملاكه المسلوبة إلى أن تضعفه الشيخوخة و يقضى الزمن على نور عينيه بالذهاب.

و إنما نعبّر بهذه العبارة الحزينة لنعلّل فرح الشريف برجوع تلك الاملاك فقد كان يرى أباه شيخا ضعيفا لا يعرف السبيل إلى مسالك الرزق، و لا تستر شيخوخته إلا برجوع تلك الاملاك.

و هنا نشير إلى خطأ وقع فيه جامع الديوان، فقد ذكر أن الشريف هنا أباه برد أملاكه إليه بأسرها فى سنة ۳۸۶، و الصواب أن تقرن هذه العبارة بالقصيدة التى نظمها سنة ۳۹۶.

فعندنا إذن قصيدتان فى التهنئة بردّ تلك الاملاك: الاولى عينية و الثانية دالية.

أما العينية فهى قصيدة جزلة تحدث فيها الشريف عن عزمه الوثاب، و بليته بالاعداء، ثم وجّه الخطاب إلى أبيه فقال:

ليهنك ما تجدّده الليالى‌و حسبك من فراق و اجتماع

و ما ردّ الزمان عليك حفظامن الاملاك و المال المضاع

تمارى الناس قبلك و هى غصبأ ديوان الضّياع أم الضّياع

و عادت فى يديك مروّضاتو كانت فقع قرقرة بقاع

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۲۳ ظفرت بما اشتهيت و أنت و انو نال البعض غيرك و هو ساع

يبشر و القلوب مفجّعات‌كأن بشيره فى الخلق ناع

و ما كلّ المواهب بالامانى‌و لا كل الاحاظى بالقراع

لكلّ فى بلوغ العز طبع‌و بعض الناس مختلف الطباع

و قد ساقه المقام إلى أن يسجل مكرمة شرف الدولة فقال:

أجار أبو الفوارس منك سيفاتحامته يمين أبى شجاع

فدى لك من ينازعك الرزاياو يقرضك الاذى صاعا بصاع

يعضّ أنامل الاسد الضوارى‌عليك بغيظ أنياب الأفاعى

رعاك بلحظ طرف غير و انو عاج عليك سمعا غير واع

فكنت السيف أغمده جبانفسلّ و قد تصدّى للمصاع

ألان رد العلاء بلا رقيبو شمّر فى الامور و لا تراع

و لا يغررك قعقعة الاعادىفذاك الصخر خرّ من اليفاع

ألان تراجعت تلك الرعاياو جهّزت الرعية للمراعى

و عاد السّرب أمنع من قلوبتقلّب بين أضلاع السباع

و أما الرائية فهى قصيدة مرقصة:

نطق اللسان عن الضميرو البشر عنوان البشير

ألآن أعفيت القلوب عن التقلقل و النفور

و انجابت الظّلماء عنوضح الصباح المستنير

ما طال يوم ملثّمإلا استراح إلى السفور

خبر تشبث بالمسامع عن فم الملك الخطير

و أذلّ أعناق العداذلالمطيّة للجرير

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۴ يسمو به قول الخطيبو تستطيل يد المشير

و ضمائر الاعداء تقذفبالحنين على الزفير

و سوابق العبرات تركضفى السوالف و النحور

و هى طويلة و كلها على هذا النسق المرقص.

أيها السادة:

إلى هنا أكتفى بترتيب الحوادث فى مسايرة الشريف و هو يمدح أباه، و يكفى أن ننص على أن ما سنغفله من تهنئة أبيه بالاعياد له دلالة سياسية فهو كان يرى أباه خليقا بأن يهنّأ بالاعياد كما يهنا الملوك و الخلفاء و أريد التهنئة الدورية التى تصاغ فى كل موسم بلا تخلّف، و هى بالتأكيد شارة الرياسة و عنوان السلطان.

أترك هذا الجانب من قصائد الشريف فى مدح أبيه و هى مبثوثة فى الديوان يرجع إليها منكم من يشاء.

ثم أشير إلى قصائد لها قيمة فى بيان المنزلة الاجتماعية لابى أحمد الموسوى.

و يشهد ديوان الشريف بأن الموسوى تلافى الفتنة بين السّنة و الشيعة فى سنة ۳۸۰، فهو على ذلك كان من الزعماء المصلحين، و لم يكن من الزعماء المفسدين.

و الخلاف بين السنة و الشيعة قديم فى العراق، و هو خلاف كان مشئوما من جانب، و ميمونا من جانب، كان مشؤوما لانه قسم العراق إلى جيشين يقتتلان، و كان ميمونا لانه علم العراقيين الجدل و جعلهم من أعرف الامم الاسلامية بأصول المذاهب و الآراء و ربما جاز لى أن أصرح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۵

بأن هذا الخلاف كان سببا فى حياة اللغة العربية: لانه أمدّ التصنيف و التأليف بفنون من القوة و الحيوية، و عاد على الشعر و النثر بأجزل النفع، و للشر مزايا فى بعض الاحيان.

و لكن هذا الخلاف كان فى حاجة إلى من يرعاه و يحوّله الى جدل مقبول يشحذ به الذهن و العقل، و قد استطاع أبو أحمد الموسوى أن يقف مرة موقف المصلح فيحقن الدماء، و يغنم السلامة للاخوان المتخاصمين.

و تظهر قيمة هذا الموقف النبيل اذا تذكرنا أن الخلاف بين السنة و الشيعة كانت تؤرّثه دسائس خارجية، و ما نقول هذا رجما بالظن، و انما عرفنا هذه الحقيقة بعد التعمق فى دراسة الوضع السياسى للنصف الثانى من القرن الرابع، فموقف أبى أحمد الموسوى كان موقف السياسى المحنّك الذى يبصر ما وراء الاكمة من المعاطب و الحتوف.

و قد سجل ابنه ذلك الموقف الصالح فقال:

و خطب على الزوراء ألقى جرانهمديد النواحى مدلهمّ الجوانب

و أضرمها حمراء ينزو شرارهاالى جنبات الجوّ نزو الجنادب

سللت عليه الحزم حتى جلوتهكما انجاب غيم العارض المتراكب

و قد علم الاعداء أنك تحتهغلبت و ما كان القضاء بغالب

و أقشعت عن بغداد يوما دويّهالى الآن باق فى الصّبا و الجنائب

و لولاك علّى بالجماجم سورهاو خندق فيها بالدماء الذوائب

و أنتم تلاحظون أن هذه الابيات تمثل عطف الشريف على بغداد:

فهو يكره أن تكون مسايل دماء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۶

و الواقع أن الشريف كان قليل الرعاية للعصبية المذهبية، و الظاهر أنه كان حرّ العقل إلى حدّ بعيد: فقد كان يدرس جميع المذاهب الاسلامية ليمدّ عقله بالأنوار التى يرسلها اختلاف الفقهاء، و اهتمامه بمذهب الشافعى معروف، مع أن مذهب الشافعى فى ذلك العهد لم يكن له أنصار أقوياء فى العراق، و إنما كان أنصاره من المصريين.

و يشهد الديوان أيضا بأن أبا أحمد الموسوى سافر إلى فارس للاصلاح بين الملكين: بهاء الدولة و صمصام الدولة، و الإصلاح بين العسكرين:

البغدادى و الفارسى.

و معنى ذلك أن هذا الرجل كان يرجى لتضميد الجروح، و ليس ذلك بالفضل القليل، و لا يعرف قيمة هذا الفضل إلا من يراجع ما دوّن التاريخ من فواجع ذلك الشقاق.

و فى هذا يقول الشريف من قصيدة نظمها فى رمضان سنة ۳۸۷.

سائل عن الطّود لم خفّت قواعدهو كان إن مال مقدار به رجحا

قد جرّبوه فما لانت شكيمتهو حمّلوه فما أعيا و لا رزحا

رموا به الغرض الأقصى فشافههمرّ القطامىّ جلّى بعد ما لمحا

من العراق إلى أجبال خرّمة يا بعده منبذا عنا و مطرّحا

ليس الملوم الذى شدّ اليدين بهيضمم على الصفقة العظمى و قد ربحا

إن أغمدوه فلم تغمد فضائلهو لا نأى ذكره الدانى و قد نزحا

و فى سنة ۴۰۰ مات أبو أحمد الموسوى و سنه سبع و تسعون سنة،

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۷

فرثاه ابنه بقصيدة بلغت تسعة و ثمانين بيتا، و هى من الطوال الجياد، نذكر منها قوله فى وصفه بقوة الشجاعة و رصانة البيان:

أنعاك للخيل المغيرة شزّبا خبط المغار بهن من لم يجزم

كالسّرب أوجس نبأة من قانصفمضى يلفّ مؤخرا بمقدّم

و اليوم مقذ للعيون بنقعه لا يهتدى فيه البنان إلى الفم

و مقاوم عرض الكلام بروده‌فيهن بين معضّد و مسهّم

أغضى لها المتشدقون و سلموالهدير شقشقة الفنيق المقرم

بالرأى تقبله العقول ضرورةعند النوائب لا بكيف و لا لم

أيها السادة:

حدثناكم فيما سلف عن الخصومة بين الرضى و المعرى، و قد جاءت الفرصة لتصحيح ذلك، و الفضل فى هذا التصحيح للصديق الكريم سعادة الاستاذ طه الراوى، أعزه اللّه و رعاه، فقد نبهنا إلى المرثية المأثورة التى بكى بها المعرى أبا أحمد الموسوى، و هى تشهد بأن المعرى كان على صفاء مع الرضى و أخيه المرتضى إلى سنة ۴۰۰ و هو لم يقم فى بغداد بعد ذلك غير قليل، و يقول الاستاذ طه الراوى إن من المستبعد جدا أن ينسى الشريف و أخوه هذه المرثية فيسيئان إلى المعرى بسبب عطفه على المتنبى، و بذلك تتبدد الشبهة التى ذكرها مؤرخو الأدب و اعتمد عليها سعادة الدكتور

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۸

طه حسين فى كتابه القيم «ذكرى أبى العلاء» . و مطلع مرثية المعرى:

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف و عنبر المستاف

و فيها يقول فى الثناء على الشريفين:

أبقيت فينا كوكبين سناهمافى الصبح و الظّلماء ليس بخاف

متأنقين و فى المكارم أرتعامتألقين بسؤدد و عفأف

قدرين فى الإرداء بل مطرين فىالإجداء بل قمرين فى الإسداف

رزقا العلاء فأهل نجد كلمانطقا الفصاحة مثل أهل دياف

ساوى الرضىّ المرتضى و تقاسماخطط العلا بتناصف و تصاف

و فى ختامها يقول:

يا لكى سرح القريض أتتكمامنى حمولة مسنتين عجاف

لا تعرف الورق اللّجين و إن تسل‌تخبر عن القلّام و الخذراف

و أنا الذى أهدى أقل بهارةحسنا لاحسن روضة مئناف

أوضعت فى طرق التشرف سامايبكما و لم أسلك طريق العافى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۹

و يحسن أن نشير إلى أن شوقى عارض هذه القصيدة و هو يرثى إسماعيل صبرى، عليهما رحمة اللّه، و قد بلغ شوقى غاية الحكمة إذ يقول:

ما أنت يا دنيا أرؤيا نائمأم ليل عرس أم بساط سلاف

نعماؤك الريحان إلا أنهمسّت حواشيه نقيع زعاف

و الاستطراد على ما فيه من فوائد لا يسمح فى هذا الموطن بأن نوازن بين حضرية شوقى و بدوية أبى العلاء، فلنقف عند هذا الحد من الشؤون المتصلة بولد الشريف، و فيما سلف غناء أىّ غناء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۰

## صلات الشريف الرضى بخلفاء بنى العباس

أيها السادة:

إن محاضرة الليلة أشقتنى كثيرا، و لكنها ستفصل فى أعظم معضلة سياسية تحدث بها من عرضوا لترجمة الشريف: و هى تساميه لتبوء عرش الخلافة الإسلامية و أكاد أجزم بأن هذا المطمح لم يكن إلا خيال شعراء، و لم يجسّمه إلا الادباء الذين يسرهم أن يكون لهم زميل يتطلع إلى المعالى و يتسامى إلى عرش الرشيد و المأمون، و لذلك نرى مؤرخى الادب يشيرون إلى هذه المسألة فرحين متهللين كأنهم ظفروا بكنز مدفون .

و الحق أن الظروف التى عاش فيها الشريف كانت سيئة جدا، و يكفى أنى لا أستطيع اليوم بعد مئات السنين أن أذكر بالتفصيل ما كانت تضطرب به بغداد فى ذلك العهد، لأن تلك السنين العجاف تركت عقابيل حمل الناس أثقالها من جيل إلى جيل.

و أنتم تعرفون أن أشهر من شجعوا الشريف على طلب الخلافة هو أبو إسحاق الصابى، و مع ذلك كان الصابى يشكو الفقر و سوء الحال فلا يملك الشريف أن يعينه بشىء، لأن الشريف كان أفقر من الصابى و إنما كان يتجمل و يستر فقره عن الناس.

و الذى يعيش فى مثل تلك الحال لا يفكر جيدا فى قلب النظام السياسى بحيث يصبح و هو السيد الذى يسيطر على الاقطار العربية و الفارسية.

على أنه لا بأس من تصوير حال الخلافة فى ذلك العهد، لنعرف متى بدأ الشريف يداعب تلك الامنية، و متى انصرف عنها انصراف اليائسين.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۱

عاش الشريف فى عهود ثلاثة من الخلفاء، هم المطيع و الطائع و القادر، و ما يمكن أن نلتفت لأيامه فى عهد المطيع: لأنه كان طفلا لا يحسب له حساب ننتقل إلى عهد الطائع الذى استمر من سنة ۳۶۳ إلى سنة ۳۸۱ و هو عهد كانت فيه الخلافة قوة و همية: لأنّ الديلم كانوا هم المسيطرين على العراق، و كان الخليفة صورة يجيزون بها الاحكام إذ كانت الجماهير فى أعماق قلوبها تحترم الخلفاء، و كان البويهيون لا يرون بأسا من استبقاء تلك الصورة تجنبا لعواطف الاهواء.

و التاريخ يشهد بأن الخلفاء فى القرن الرابع كانوا قد اطمأنوا إلى الحرمان من السلطة التنفيذية، حتى إمارة الحج لم يكن الخليفة يصدر بها مرسوما إلا نص فيه على اسم الملك الذى يحكم و يسود، فقد كتب الصابى على لسان الخليفة المطيع مرسوما بامارة الحج جاءت فيه هذه الكلمات:

«و لما قلّدك أمير المؤمنين النقابة على الطالبيين فبان له فيها محمود سيرتك و ظهر من أفعالك ما يدل على سلامة سريرتك، رأى أمير المؤمنين أن حق العادة التى عوّده اللّه فيها الصلاح، و أجرى له فيها طائر النجاح، أن يزيدك فضلا و إحسانا، و لا يألوك إنعاما و امتنانا: فأنهى معز الدولة أبو الحسين أحسن اللّه حياطته أمر رفاق الحجيج الشاخصة من العراقين، و إيثار تقليد تسييرها إلى الحرمين، و الاعتماد عليك فى حمايتها، و توليك الحرب و الاحداث فيها فوافق رأى معز الدولة أبى الحسين تولى اللّه كفايته الصواب، و وقع عند أمير المؤمنين موقع القبول و الإيجاب» فالخليفة فى هذا المرسوم الدينى ينص على اسم الامير البويهى، لأنه لم يكن يملك غير ذلك.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۲

و هناك عبارة أصرح من هذه العبارة، و هى منشور كتب على لسان الطائع، جاء فيه ان الإمامة لا تصح و لا تسلم إلا برعاية البويهيين.

و قد أخرجت من رسائل الصابى شواهد كثيرة تؤيد ما أقول، و لكن لا موجب لسرد تلك الشواهد، فهذا أمر مفروغ منه، و مسلّم به، و الذى اطّلع منكم على كتاب «تجارب الامم» يرى أن القرن الرابع لم يكن إلا مسرحا للعراك بين الفرس و الترك، و لم يكن الخلفاء يذكرون إلا من باب الاستطراد، فكأنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة.

و لنقل بصراحة إن الشريف كان حريصا على الظهور بمظهر الولاء للديلم و الأتراك، لأنه كان يعرف أن الأمر إما أن يكون لاولئك أو هؤلاء و قد سافر مرة إلى الكوفة فتحدث ناس أنه عزم على التوجه الى مصر، فلما رجع إلى بغداد نفى الشبهة بقصيدة مدح فيها بنى بويه و تودد إلى الاتراك، و لا يعلم الا اللّه ما فى تلك القصيدة من عناصر الصدق و لكنها شاهد على ما كان يجب أن يصطنعه الرجل من السياسة و هو يعيش فى بغداد فى النصف الثانى من القرن الرابع، و اسمعوا كيف يقول:

أفى كل يوم للمطامع جاذب يجشّمنى ما يعجز الاسد الوردا

كأنى اذا جادلت دون مطالبى أجادل للأيام ألسنة لدّا

أحل عقود النائبات و أنثنى و خلفى يد للدهر تحكمها عقدا

اذا ما نفذت السّدّ من كل جانب رأيت أمامى دون ما أبتغى سدا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۳ أترك أملاكا رزانا حلومهم حلولا على الزّوراء أيمانهم تندى

كأنك تلقى منهم آجمية مؤللّة الانياب أو قللا صلدا

و لا يأنف الجبار أن يعتفيهم و لا الحرّ يأبى أن يكون لهم عبدا

اذا ما عدمنا الجود منهم لعلة فلا نعدم العلياء منهم و لا المجدا

نحاسن أقمار الدّجى بوجوههم فنبهرها نورا و نغلبها سعدا

تخالهم غيدا اذا بذلوا الندى و تحسبهم جنّا اذا ركبوا الجردا

الى أن يقول:

أآل بويه ما نرى الناس غيركم و لا نشتكى للخلق لولاكم فقدا

نرى منعكم جودا و مطلكم جداو اذ لا لكم عزّا و امراركم شهدا

و عيش الليالى عند غيركم ردى و برد الامانى عند غيركم و قدا

اذا لم تكونوا نازلى الارض لم نجدبها الوادى المطمور و الكلأ الجعدا

و كنت أرى أنى متى شئت دونكم وجدت مجازا للمطالب أو معدى

فلم أر من مطلع عن بلادكم و لا من مراح للأمانى و لا مغدى

خذوا بزمامى قد رجعت إليكم رجوع نزيل لا يرى منكم بدّا

أريد ذهابا عنكم فيردّنى إليكم تجاريب الرجال و لا حمدا

و من الواضح أن سيطرة الفاطميين على مصر لم تكن إيذاء مباشرا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۴

للمطيع أو الطائع، و إن كانت طعنة موجّهة إلى من يسيطرون على فارس و العراق، و لهذا نرى لغة المشرق فى ذلك العهد لا تسمى الخليفة الفاطمى «صاحب مصر» و إنما تسميه «صاحب المغرب» و هو تعبير كلّه إيحاء! و نعود فنقول: إن الشريف أنس كل الانس بالطائع، فكان يمدحه بصدق و إخلاص، و مع أن الطائع كان خليفة يستضعفه البويهيون أشد الاستضعاف، فقد رأى فيه الشريف رجلا عربيا هو البقية من مجد بنى العباس.

و هنا أذكر أن الاستاذ عبد الحسين الحلى أراد أن يشكك فى صدق عواطف الشريف و هو يمدح الطائع، و أنا أرى غير ذلك، أرى أن الشريف كان يفهم جيدا أنه يخاطب خليفة بالرغم من فساد الأحوال، و أرى أن مطامع الشريف فى ذلك العهد كانت تقف عند استرداد أملاك أبيه التى صادرها عضد الدولة منذ سنين، فمن الإسراف فى حسن الظن بعزيمة الشريف أن يقال إنه كان يطلب الخلافة فى ذلك العهد.

فإن لم يكن بدّ من تمجيد الشريف فيكفى النص على أن عواطفه نحو الطائع كانت خالصة من شوائب الرياء، بخلاف ما أراد الاستاذ عبد الحسين.

و من الواجب أن ننص على أن مدائح الشريف للطائع لم تبدأ إلا بعد أن اطمأن على خلاص أبيه من الاعتقال، و قرب رجوعه إلى بغداد، أى بعد سنة ۳۷۳، فأقدم قصيدة مدحه بها هى الحائية التى ذم فيها أعداءه ثم تلخص إلى المدح فقال:

نعلّل بالزّلال من الغوادىو نتحف بالنسيم من الرياح

و حاورنا الخليفة حيث تسموعرانين الرجال إلى الطّماح

نوجّه بالثناء له مصوناو نرتع منه فى مال مباح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۵ و سيّال اليدين من العطايامهيب الجد مأمون المزاح

إذا ابتدر الملام ندى يديهمضى طلقا على سنن المراح

أمير المؤمنين أذال سيرىذرى هذى المعبّدة الرزاح

فكم خاض المطىّ إليك بحرايموج على الاماعز و الضواحى

و كم لك من غرام بالمعالىو همّ فى الأمانى و ارتياح

و أيام تشنّ بها المناياعوابس يطّلعن من النواحى

فلا نقل المهيمن عنك ظلّامن النعماء ليس بمستباح

و فى سنة ۳۷۶ مدح الطائع و شكره على تكرمة خصه بها و ثياب و ورق، فقال بعد أبيات:

و إذا أمير المؤمنين أضاف لىأملى نزلت على الجواد المفضل

بالطائع الميمون أمجج مطلبىو علوت حتى ما يطاول معقلى

قرم إذا عرت الخطوب مراحهأدمى غواربها بناب أعصل

متوغل خلف العدوّ و علمهأن الجبان إذا سرى لم يوغل

و إذا تنافلت الرجال غنيمةقسم التراث لها بحد المنصل

ثبت لهجهجة الخطوب كأنماجاءت تقعقع بالشّنان ليذبل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۶ رأى الرشيد و همة المنصور فىحسن الأمين و نعمة المتوكل

آباؤك الغرّ الذين إذا انتموا ذهبوا بكل تطاول و تطوّل

درجوا كما درج القرون و علمهمأن سوف يخبر آخر عن أول

نسب إليك تجاذبت أشياخهطولا من العباس غير موصّل

هذى الخلافة فى يديك زمامهاو سواك يخبط قعر ليل أليل

أحرزتها دون الأنام و إنماخلع العجاجة سابق لم يذهل

طلعت بوجهك غرة نبويةكالشمس تملأ ناظر المتأمل

و هى قصيدة طويلة أسلم فيها الشريف أمره للطائع فقال:

أرجوك للأمر الخطير و إنمايرجى المعظم للعظيم المعضل

و أروم من غلواء عزك غايةقعساء تستلب النواظر من عل

كم رامها منك الجبان فراوغتشقّاء يلعب شقها بالمسحل

تدمى قلوب الحاسدين و تنثنىفتردد عادية الخطوب النّزّل

ضاق الزمان فضاق فيه تقلبی كالماء يجمع نفسه فی الجدول

هذا الحسين إلی علائك ينتمی شرفا و ينسب مجده فی المحفل

إلی آخر القصيدة، و الحسين هنا هو أبوه، لا الحسين بن علی ابن أبی طالب، و هذه القصيدة صريحة فی أن الشريف كان يؤمن بأن الطائع أسدی إلی أبيه فنونا من المعروف.

و كانت سنة ۳۷۷ من أعوام الخصب بين الرضی و الطائع: فقد مدحه خمس مرات، منها مرتان فی شهر رمضان، الاولی بقدوم الصوم، و هی قصيدة نفض الشريف بها همومه، و شكا بها دهره، إذ يقول:

عبقرية الشريف الرضی، ج۱، ص: ۱۳۷ بلوت و جربت الاخلّاء مدّةفأكثر شیء فی الصديق ملال

و ما راقنی ممن أودّ تملقو لا غرنی ممن أحب وصال

و ما صحبك الادنون إلا أباعداذا قلّ مال أو نبت بك حال

و من لی بخل أرتضيه وليت لی يمينا يعاطيها الوفاء شمال

تميل بی الدنيا إلی كل شهوةو أين من النجم البعيد منال

و تسلبنی أيدی النوائب ثروتیو لی من عفافی و التقنع مال

إذا عزنی ماء و فی القلب غلةرجعت و صبری للغليل بلال

أری كل زاد ما خلا سدّ جوعةترابا و كلّ الماء عندی آل

و مثلی لا يأسی علی ما يفوتهإذا كان عقبی ما ينال زوال

كأنا خلقنا عرضة لمنيةفنحن إلی داعی المنون عجال

نخفّ علی ظهر الثری و بطونهعلينا إذا حلّ الممات ثقال

و ما نوب الايام الا أسنةتهاوی الی أعمارنا و نصال

و أنعم منا فی الحياة بهائمو أثبت منا فی التراب جبال

أنا المرء لا عرضی قريب من العداو لا فیّ للباغی علیّ مقال

و ما العرض إلا خير عضو من الفتیيصاب و أقوال العداة نبال

و قور فإن لم يرع حقی جاهلسألت عن العوراء كيف تقال

و هو سيمدح الطائع بعد ذلك مدحا طيبا، و لكن ما رأيكم فی هذه المقدمات؟ انه يأنس بالطائع كل الانس فيفضی الی بذات نفسه و يشكو أمامه قسوة الفقر و خشونة الزمان.

و هو حين يصل الی مدحه لن يقول: أعطنی مالا، و انما سيقول:

عبقرية الشريف الرضی، ج۱، ص: ۱۳۸ أعطنی منصبا أزل طمع الاعداء عنّی بفتكةفلا سلم الا أن يطول قتال

فإن نفوس الناكثين مباحةو ان دماء الغادرين حلال

و شمّر فما للسيف غيرك ناصرو لا للعوالی ان قعدت مصال

و من لی بيوم شاحب عجاجهأنال بأطراف القنا و أنال

أردنی مرادا يقعد الناس دونهو يغبطنی عمّ عليه و خال

و لا تسمعن من حاسد ما يقولهفأكثر أقوال العداة محال

الی آخر القصيدة، و فی الشهر نفسه هنأه بالمهرجان فمدحه و مدح أصوله من بنی العباس:

يلقی الخطوب و وجهه طلقو يخوضهن و قلبه جذل

تخفى بشاشته حميته كالسم موّه طعمه العسل

من معشر كانت سيوفهم حليا لمن ضربوا و من عطلوا

بالفخر يكسون الذى سلبواو الذكر يحيون الذى قتلوا

أنت الجواد اذا غلا أمل و المستجار اذا طغى و جل

و فى هذه القصيدة يصرح بانه ورث محبة الطائع عن أبيه اذ يقول:

ان المجرّد فى هواك فتى لا اللوم يردعه و لا العذل

مثل الحسين فبين أضلعه قلب بغيرك ما له شغل

و بعد ايام هنأه بعيد الفطر، تهنئة شاعر يعرف انه يخاطب خليفة و هى تجمع بين العذوبة و الجزالة، و قد عرّض فيها بخصوم الطائع أعنف

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۳۹

تعريض، و الذى يهمنا هو الشاهد الآتى:

أعيذ مجدك أن أبقى على طمع و أن تكون عطايای المواعيد

و أن أعيش بعيدا من لقائكم ظمآن قلب و ذاك الورد مورود

مالى أحب حبيبا لا أشاهده و لا رجای إلى لقياه ممدود

و أتعب القلب فيمن لا وصال له يا للرجال أقلّ الخرّد الغيد

أكثرت شعرى و لم أظفر بحاجته فسقّنى قبل أن تفنى الاغاريد

و بعد شهر عزّاه فى عمر بن إسحاق بن المقتدر و كان آخر ولد بقى من ظهر ذلك الخليفة، و هى قصيدة تكثر فيها الحكم و الأمثال.

نؤمّل أن نروى من العيش و الردى شرب لأعمار الرجال أكول

و هيهات ما يغنى العزيز تعزّز فيبقى و لا ينجى الذليل خمول

نقول مقيل فى الكرى لجنوبناو هل غير أحشاء القبور مقيل

دع الفكر فى حب البقاء و طوله فهمّك لا العمر القصير يطول

و لا ترج أن تعطى من العيش كثرة فكل مقام فى الزمان قليل

و من نظر الدنيا بعين حقيقة درى أن ظلّا لم يزل سيزول

تشيّع أظعان إلى غير رجعة و تبكى ديار بعدهم و طلول

إذا لم يكن عقل الفتى عون صبره فليس إلى حسن العزاء سبيل

و إن جهل الأقدار و الدهر عاقل فأضيع شىء فى الرجال عقول

و من مات لم يعلم و قد عانق الثرى بكاه خليل أم سلاه خليل

و هذا البيت يشهد بأن الشريف الرضى كان يرتاب فيما يعرف الأموات من أحوال الاحياء.

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۴۰

و فى العام نفسه عاتبه بقصيدة قوية طاب فيها التشبيب و طاب فيها العتاب و أى تشبيب أعنف من هذه الانفاس الحرار:

خليلى هل تثنى من الوجد عبرة و هل ترجع الأيام ما كان ماضيا

إذا شئت أن تسلى الحبيب فخلّه وراءك أياما و جرّ الليالیا

أعفّ و فى قلبى من الوجد لوعة و ليس عفيفا تارك الحب سالیا

إذا عطفتنى للحبيب عواطف‌أبيت و فات الذلّ من كان آبيا

و غيرى يستنشى الرياح صبابةو ينشى على طول الغرام القوافيا

و ألقى من الأحباب ما لو لقيتهمن الناس سلّطت الظّبا و العواليا

فلا تحسبوا أنى رضيت بذلةو لكنّ حبّا غادر القلب راضيا

رعى اللّه من ودعته يوم دابق و ولّيتّ أنهى الدمع ما كان جاريا

و أكتم انفاسى إذا ذكرتهو ما كل ما تخفيه يا قلب خافيا

فعندى زفير ما ترقى من الحشاو عندى دموع ما طلعن الأماقيا

مضى ما مضى ممن كرهت فراقهو قد قلّ عندى الدمع إن كنت باكيا

و لا خير فى الدنيا إذا كنت حاضراو كان الذى يغرى به القلب نائيا

و لما وصل إلى عتاب الطائع مدحه اجزل المدح ثم قال:

إلى كم أمنّى النفس يوما و ليلةو تعلمنى الأيام ان لا تلاقيا

و كم انا موقوف على كل زفرةعليل جوى لو ان ناسا دوائيا عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۱ أ يسنح لى روضا و أصبح عازبا و يعرض لى ماء و أصبح صاديا

و ما انا- إلا ان اراك- بقانعو إن كنت جرارا إلىّ الأعاديا

تركت إليك الناس طرّا و كلّهميتوق إلى قربى و يهوى مقاميا

عليك علام اللّه إنى لفازعإليك و إن لم اعط منك مراديا

و انتم ترون انه يمنّ على الخليفة بمدحه منا صريحا، و يقول إنه يترك فى سبيله اقواما كرام الاكفّ، و سنرى فيما بعد من هم اولئك الاقوام، و لكن لا بأس من التصريح بأن الرضىّ كان يحب ان يستأثر بمودة الطائع فلا يرى فى حضرته احدا من خصومه الألداء، و من شواهد ذلك انه عرف ان بعض خصومه ظفر بمودة الطائع، فأرسل اليه يعاتبه عتاب الانداد فيقول:

و نمى إلى من العجائب انهلعبت بعقلك حيلة الخوّان

و تملكتك خديعة من قولةغرّارة الأقسام و الأيمان

حقا سمعت و ربّ عينى ناظريقظ تقوم مقامها الاذنان

اين الذى اضمرته من بغضهو عقدته بالسر و الإعلان

ام اين ذاك الرأى فى إبعادهحنقا و اين حمية الغضبان

سبحان خالق كل لون معجبما فيكم من كثرة الألوان

يوم لذا، وعد لذاك، و هذهشيم مقطّعة قوى الأقران

فالآن منك اليأس ينقع غلتىو اليأس ينقع غلة الظمآن

فاذهب كما ذهب الغمام رجوتهفطوى البروق و ضنّ بالتّهتان

لى مثل ملكك لو اطعت تقنّعىو ذوو العمائم من ذوى التيجان

و لعل حالى ان يصير إلى علافالدوح منبتها من القضبان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۲ فاحذر عواقب ما جنيت فربمارمت الجناية عرض قلب الجانى

اعطيتك الراى الصريح و غيرهتنساب رغوته بغير بيان

و عرضت نصحى و القبول إجازةفإذا ابيت لويت عنك عنانى

و انتم ترون ان هذه جرأة لو صدرت فى عهد خليفة مثل الرشيد لأطاح رأس الشاعر بلا تردد، و لكن الرضى كان يثق بأن الطائع يعطف عليه، و كان يثق بأن الطائع لا يملك الامر كله فى بغداد.

و فى سنة ۳۷۸ مدح الطائع بقصيدة تفيض بالوداد، اذ يقول:

يا جميلا جماله ملء عينىو عظيما اعظامه ملء قلبى

بك ابصرت كيف يصفو غديرىمن صروف القذى و يأسن سربى

انت افسدتنى على كل مأمولو اعديتنى على كلّ خطب

فاذا ما أراد قربى مليكقلت قربى من الخليفة حسبى

عزّ شعرى الا عليك و ما زال عزيزا يأبى على كل خطب

أنت ألبستنى العلا فأطلهاأحسن اللبس ما يجلل عقبى

اننى عائذ بنعاك ان أكثر قولى و أن أطوّل عتبى

نظرة منك ترسل الماء فى عودىو تمطى ظلى و تنبت تربى

ما ترجيت غير جودك جوداأيرجّى القطار من غير سحب

لا تدعنى بين المطامع و اليأسو وردى ما بين مرّ و عذب

و فى سنة ۳۷۹ مدحه و عاتبه على تأخير الإذن له فى لقائه بمجلس خاص، و ذلك فى قصيدة طويلة نشير اليها بالمطلع:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۳ ضربن الينا خذودا و ساما و قلن لنا اليوم موتوا كراما

و فى سنة ۳۸۰ مدحه بعدة قصائد، أهمها القصيدة النونية:

الآن اعربت الظنونو علا على الشك اليقين

و انما كانت اهم قصائده فى تلك السنة بفضل ما نظمت من أجله، فقد كان الطائع تأثر من قصيدة قال فيها الشريف:

متى أنا قائم أعلا مقامو لاق نور وجهك بالسلام

و منصرف و قد أثقلت عطفىمن النّعماء و المنن الجسام

و لى أمل أطلت الصبر فيهلو ان الصبر ينفع من أوامى

و ما خفت النوائب ترتمى بىو قد أقعى بجامحها لجامى

أيعرقنى الطوى و الروض حالو يغلبنى الظما و البحر طام

و لى قربى رؤوم كنت أرجويمينك أن تقرّب لى مرامى

و باب الإذن منى كلّ يومىقعقع بالقوافى و النظام

لكم أرجاء زمزم و المصلّىو بطحاء المشاعر و المقام

و أنتم اطول العظماء طولاو أندى فى المحول من الغمام

و ابعد موطنا من كل عارو أمنع جانبا من كل ذام

و أجرى عند مختلف العوالىو أفلج عند معترك الخصام

بآباء مضوا و هم عوارمن القول المهجّن و الملام

و أمّات درجن على الليالىو هن أصحّ من بيض النّعام

الى ان يقول:

ألان جذبت من ايدى الليالىعنانى و اشتملت على زمامى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۴ فما اخشى الزمان و لو تلاقت‌يداه من ورائى او امامى

اقول: ان الطائع رقّ لهذه القصيدة فأمر بأن يسير الشريف الى داره فى يوم الخميس لعشر بقين من رمضان، و جلس له جلوسا خاصا، و كانت خلع السواد قد أعدت له فجلبت عليه، و زاد الخليفة فى اكرامه فلم يخرج الا و هو مثقل بالهدايا الفاخرات، و قد ظهر أثر ذلك فى النونية اذ يقول:

أترى امين اللّه الامن له البلد الأمين

للّه درّك حيث لاتسطو الشّمال و لا اليمين

و الامر امرك لا فم‌يوحى و لا قول يبين

لما رأيتك فى مقام يستطار به الركين

و رأيت ليث الغاب معترضا له الدنيا عرين

أقدمت اقدام الذى‌يدنو و شافعه مكين

فلذاك ما ارتعد الجنان حيا و لا عرق الجبين

و سمت بفضلك غرةتغضى لهيبتها الجفون

و امتدّ من نور النبىّعليك عنوان مبين

و جمال وجهك لى بنيل جميع ما أرجو ضمين

فافيضت الخلع السواد علىّ ترشقها العيون

شرف خصصت به و قددرجت بغصته القرون

و خرجت اسحبها و لى‌فوق العلا و النجم دون

جذلا و للحساد من‌اسف زفير او انين

أيها السادة:

الى هنا رأيتم صلات الشريف بالطائع، رأيتم شاعرا يمدح و خليفة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۵

يثيب، فهل يدوم هذا النعيم؟

اخشى ان تكون مدائح الرضى بابا يدخل منه الشر الى قصر الطائع:

فقد اطال فى وصفه بالشجاعة و الجرأة و البطولة، و اطال فى وصف جوائزه و عطاياه، و كان هناك قوم لا يرضيهم ان يكون للخلفاء جاه او مال.

و كذلك تطوع بعض الدساسين و افهم بهاء الدولة ان قصر الخليفة مملوء بالذخائر العظيمة، و زيّن له القبض عليه، فانخدع بهاء الدولة و توهم انه سيظفر بكنوز الارض حين يقبض على الطائع، فأرسل اليه يسأله الإذن بالحضور فى خدمته ليجدد العهد، فأذن له فى ذلك، و جلس له كما جرت العادة، فدخل بهاء الدولة و معه جمع كثير، و لما دخل قبّل الارض بين يدى الخليفة و أجلس على كرسى، و دخل بعض الديلم كأنه يريد ان يقبّل يد الخليفة فجذب الطائع بحمائل سيفه و انزله عن سريره و الخليفة يقول:

«إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» و فى لحظات معدودات أخذ ما فى دار الخليفة من الذخائر، و نهب الناس بعضهم بعضا، و كاد حبل الامن ينقطع فى بغداد.

و كان الشريف الرضى فى مجلس الخليفة فى تلك الساعة السوداء، فلم يدفع عنه بيد و لا لسان، و إنما لاذ بالفرار ليسلم من عدوان الباغين.

و قد كان موقفه فى هذه الحادثة الشنعاء شبيها بموقف البحترى حين قتل المتوكل، و لكن البحترى كان أشجع و أوفى، فقد دافع عن المتوكل بيديه ثم رثاه بعد ذلك أشرف رثاء، أما الرضى فترك صاحبه لأيدى الغادرين، و كان يملك الدفاع عنه لو شاء، ثم سجل الحادث بقصيدة أطال فيها الغزل و التشبيب، كأن تلك الفاجعة لم تنسه ثورة الوجد و لوعة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۶

الحنين، و لما وصل إلى صميم الموضوع وصف نفسه بالحزم فقال:

إذا ظننا و قدّرنا جرى قدربنازل غير موهوم و مظنون

إعجب لمسكة نفس بعد ما رميتمن النوائب بالأبكار و العون

و من نجائى يوم الدار حين هوىغيرى و لم أخل من حزم ينجّينى

مرقت منها مروق النجم منكدراو قد تلاقت مصاريع الردى دونى

و كنت أول طلّاع ثنيتهاو من ورائى شرّ غير مأمون

من بعد ما كان ربّ الملك مبتسماإلىّ أدنوه فى النجوى و يدنينى

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطهلقد تقارب بين العز و الهون

و منظر كان بالسراء يضحكنىيا قرب ما عاد بالضراء يبكينى

هيهات أغترّ بالسلطان ثانيةقد ضلّ ولّاج أبواب السلاطين

«و هذا تعريض جارح برجال كان يعرفهم الشريف، رجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يثبتوا على البأساء و قهرتهم الحوادث على التنصل من مذاهبهم السياسية. و قد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين فى ذلك العهد، و لكنا خشينا ان نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين، و أول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوى و كان شخصية هائلة تملك جماهير الناس فى الكرخ و بغداد أقوى امتلاك، و قد اعتقل مع أبى أحمد الموسوى و صودرت أملاكه فكان فى خزائنه من الذهب مليون دينار. و هذا الرجل سكت الشريف عنه حين توجع لأبيه و عمه، فهل يمكن الظن بأنه دخل فى مكاتبات سرية مع عضد الدولة لينعم بالخلاص؟ ذلك ظن من الظنون لا يقوم عليه دليل و يكفى أن نسجل أن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض».

و بعد الفراغ من طبع الكتاب وقفنا على نص يؤيد هذا الافتراض

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۷

و يشهد بأن أبا أحمد الموسوى و أبا الحسن العلوى كانا عدوين فقد جاء فى تجارب الامم ج ۳ ص ۲۶۷ ما نصه على لسان أحد المضطهدين.

(و جاءنى فى أثناء ذلك الشريف أبو أحمد الموسوى و كان يتهمنى بالميل إلى الشريف أبى الحسن محمد بن عمر و يستوحش منى لأجله).

و لعلكم أيها السادة فى غنى عمن يحدثكم أن بهاء الدولة أظهر أمر الخليفة القادر باللّه و نادى بشعاره فى أسواق بغداد، و كتب على الطائع كتابا بالخلع و تسليم الأمر إلى القادر، شهد فيه الشهود عليه. و الملك للّه الواحد القهار.

و لكن ألا ترون من الظلم أن يقال إن موقف الشريف شبيه بموقف البحترى، و إن الشريف كان يجب عليه أن يدافع عن الطائع كما دافع البحترى عن المتوكل؟

إن الشبه بين الحادثتين لا يتمّ إلا من الوجهة الشكلية، أما من حيث الجوهر فهو مفقود، لأن شخصية المتوكل غير شخصية الطائع، فقد استطاع بلباقته و براعته أن يقنع العالم الإسلامى بأن الخلافة باقية، و أنها لا تزال تملك مصاير الامور: فترفع من ترفع، و تخفض من تخفض، و كذلك كان الفتك به فى مجلس شراب جريمة يثور عليها أضعف الجبناء.

أما الطائع فتولى الخلافة و هى كالقلب المنخوب لا تثبت أمام عاصفة و لا يحسب لها يوم الروع حساب، و من المؤكد أن الشريف لم ير فيما صنع بهاء الدولة مع الطائع شيئا جديدا، فتلك الصورة المنكرة كانت لها سوابق فى غاية من البشاعة و القبح، فقد صيغت على نموذج الحادث الفظيع الذى وقع للمستكفى باللّه يوم دخل عز الدولة و معه أتباعه، و المستكفى على سرير الخلافة، فقبّلوا الارض بين يديه، ثم تقدم اثنان كأنهما يريدان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۸

تقبيل يده فمدّها إليهما و هو متلطّف مترفق فجذباه و طرحاه إلى الارض و وضعا عمامته فى عنقه ثم جرّاه مهينا ذيلا ليعتقل فى دار عز الدولة.

و من هذا التماثل التام بين ما وقع للمستكفى باللّه و ما وقع للطائع ترون أن الشريف الرضى كان يتوقع هذه الحوادث، و ترون انه كان يعرف ما يصنع فى مثل هذه المواقف و لست استبعد أن يكون الشريف وطّن نفسه على إيثار السلامة إن وقع مثل هذا الحادث، لأن الظروف لم تكن تسمح أبدا بتأليف جيش يحارب الديلم و يناصر بنى العباس.

و القصيدة التى اشرنا اليها منذ لحظات تشهد بذلك، فهى قصيدة رجل يكرثه التضجر و التألم و لا يهتاج للقتال، لأنه كان يعرف ان القتال لا يطلب منه فى مثل تلك الحال.

أضيفوا إلى ذلك انه كان جرّب الحوادث و جربته الحوادث، فكان يذكر بالتأكيدان عضد الدولة اعتقل أباه و صادر أملاكه، ثم نفاه، و مع ذلك لم تسقط السماء على الارض، و لم يمتشق فى سبيله سيف، و لم يبذل فى الدفاع غير قطرات من الدمع. و ما أضيع من لا يحامى عنه أنصاره بغير الدمع! لست من القائلين بأن الشريف لم يكن يهمه أمر الطائع: فذهنى لا يسبغ هذا النوع من الدفاع عن الشريف، لأنى اعتقد أن الشريف كان صادقا كل الصدق فى مودة الطائع، و لعله اصدق علوى مدح العباسيين و أطال عليهم الثناء.

ان الاستاذ عبد الحسين الحلى نظر إلى الشريف من وجهة مذهبية حين حكم بأنه كان يدارى الطائع، أما انا فأنظر الى الشريف، من وجهة إنسانية، و اعتقدان الشريف لم يكن مداجيا و لا مرائيا و لا وصوليا فى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۹

مودته للطائع، و إنما كان يراه بقية من بقايا بنى العباس الذين اذاعوا معانى العظمة فى الامم الاسلامية زمنا غير قليل، و كان يتمنى لو يعتدل الميزان فتصبح الخلافة قوة فعلية ترتفع بها العروبة و تنهار أمامها الشعوبية.

و لست بهذا القول أعطى الشريف ما لم يكن له أهل، لا، فليس من همى ان امنح الشريف ما لا يملك، و إنما اقول هذا القول فرارا من ظلم الشريف فإن شعره يشهد بأنه توجع لنكبة الطائع، و يشهد بانه تألم لنكوله عن الدفاع عنه فى ذلك اليوم المشئوم.

و شاهد ذلك ايها السادة ان الشريف لم يكتف بالقصيدة التى صوّر بها ما وقع فى ذلك اليوم، و انما آذاه و ارمضه ان يرى الطائع مخلوعا يعيش على هامش الحياة بعد ان كان بالامس خليفة يبرم و ينقض، و يعطى و يمنع، و كذلك رأيناه يقول:

إن كان ذاك الطّود خرّفبعد ما استعلى طويلا

موف على القلل الذواهب فى العلا عرضا و طولا

قرم يسدّد لحظهفترى القروم له مثولا

و يرى عزيزا حيث حلّو لا يرى إلا ذليلا

كالليث إلا انه اتخذالعلا و المجد غيلا

و علا على الأقران لامثلا يعدّ و لا عديلا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۰ من معشر ركبوا العلاو أبوا عن الكرم النزولا

كرموا فروعا بعد ماطابوا و قد عجموا أصولا

نسب غدا روّاده‌يستنجبون لنا الفحولا

يا ناظر الدين الذى‌رجع الزمان به كليلا

يا صارم المجد الذى‌ملئت مضاربه فلولا

يا كوكب الأحساب اعجلك الدّجى عنا أفولا

يا غارب النّعم العظام‌غدوت معمودا جزيلا

يا مصعب العلياء قادتك العلا نقضا ذلولا

لهفى على ماض قضى‌ان لا ترى منه بديلا

و زوال ملك لم يكن‌يوما يقدّر ان يزولا

و منازل سطر الزمان على معالمها الحؤولا

من بعد ما كانت على الأيام مرباة زلولا

و الاسد ترتكز القنافيها و ترتبط الخيولا

من يسبغ النعم الجسام و يصطفى المجد الجزيلا

من ينتج الآمال يوم تعود باللّيّان حولا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۱ من يورد السّمر الطوال و يطعم البيض النّصولا

من يزجر الدهر الغشوم‌و يكشف الخطب الجليلا

و تراه يمنع دوننا‌وادى النوائب ان يسيلا

عقّاد ألوية الملوك‌على العلا جيلا فجيلا

هذا و كم حرب تبزّ الاسد سطوتها الغليلا

صمّاء تخرس آلهاالا قراعا او صهيلا

و الخيل عابسة تجرّمن العجاج بها ذيولا

اجتاب عارضها و قدرحل المنون به همولا

كالثائر الضرغام و إن‌لبس الوغى دقّ الرعيلا

صانعت يوم فراقه‌قلبا قد اعتنق الغليلا

ظعن الغنى غنى و حوّل‌رحله الا قليلا

ان عاد يوما عاد وجه‌الدهر مقتبلا جميلا

و لئن مضى طوع المنون‌مؤمّما تلك السبيلا

فلقد تخلف مجده‌عبئا على الدنيا ثقيلا

و استذرت الأيام من‌نفحاته ظلّا ظليلا

و انما نقلنا هذه القصيدة على طولها لتروا كيف كان وفاء الشريف فمثل هذه القصيدة لا ينظمها رجل متظرف و لا متكلف، و انما ينظمها رجل محزون و قد عالجنا الشعر سنين فرأيناه لا يسلم زمامه لغير الأوفياء، و الشريف فى هذه القصيدة وفىّ امين.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۲

و ارجو ان تتذكروا ان هذه القصيدة نظمت فى شعبان من سنة ۳۸۱ اى فى خلال الأيام العصيبة التى اقترف فيها بهاء الدولة ما اقترف، فهى من اظهر الشواهد على جسارة الشريف.

و فى سنة ۳۹۳ مات الطائع بعد أن عاش مخلوعا أكثر من عشر سنين و هو فى رعاية القادر، و هى رعاية وقعت فيها أعاجيب أشارت إلى بعضها كتب التاريخ فهل تغافل عنه الشريف؟ هيهات، فقد رثاه بقصيدتين هما شاهد على ما كان يملك من الشريف و النبل. و فى الاولى يقول:

إن للطائع عندى منّةو حمى قد بلّها لى ببلالى

ليس ينسيها و إن طال المدىمرّ أيام عليها و ليالى

فاتنى منك انتصار بيمينىفتلافيت انتصارا بمقالى

و هذه الأبيات تشهد بأن الشريف كان يتألم لنكوله عن نصرة الطائع يوم الدار، يوم هجم عليه بهاء الدولة و أنصاره المجرمون.

و تلك قصيدة طويلة يراها القارىء فى الديوان، أما القصيدة الثانية فمطلعها:

ما بعد يومك ما يسلوبه السالىو مثل يومك لم يخطر على بالى

و المهم أن نسجل أن الشريف ظلّ يتوجع لنكبة الطائع مدة طويلة، فرثاه بعد ذلك خفية بقصيدة نتخير منها هذه الأبيات:

و مؤمّر نزلوا به فى سوقةلا شكله فيهم و لا قرناؤه

قد كان يفرق ظله أقرانهو يغضّ دون جلاله أكفاؤه

و محجب ضربت عليه مهابةيعشى العيون بهاؤه و ضياؤه

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۵۳ نادته من خلف الحجاب منيةأمم فكان جوابها حوباؤه

شقت إليه سيوفه و رماحهو أميط عنه عبيده و إماؤه

لم يغنه من كان ودّ لو أنهقبل المنون من المنون فداؤه

حرم عليه الذل إلا أنهأبدا ليشهد بالجلال بناؤه

أقنى الحياء تجمّلا لو أنهيبقى مع الدمع اللجوج حياؤه

فاذهب فلا بقى الزمان و قد هوىبك صرفه و قضى عليك قضاؤه

و من كل ما سلف ترون أن الشريف لم يكن مرائيا فى حب الطائع، و انه ندم على أن لم يدفع عنه بيمينه، و انه ظل وفيا له بعد الخلع و بعد الممات.

و الظاهر ان الطائع كان أحسن إلى الشريف و إلى أبيه، و الاحسان يحفظه كرام الرجال و كان الشريف من الأكرمين.

قد تسألون: و ما ذا صنع الشريف بعد خلع الطائع؟

و نجيب بأنه صنع ما يصنع السياسيون، و هل للسياسيين قلوب؟

لقد استقبل الخليفة الجديد بقصيدة شهد فيها أنه جدّد شرف الخلافة العباسية، و جعله موطّدا للبناء الذى وضع قواعده أبو العباس السفاح، و استباح لنفسه أن يخاطب القادر فيقول:

مجد، أمير المؤمنين، أعدتهغضا كنور المورق الميّاس

بعثت فى قلب الخلافة فرحةدخلت على الخلفاء فى الأرماس

و مكيدة أشلى عليك نيوبهاغضبان للقربى القريبة ناس

فغرت إليك ففتّها و تراجعتففرته بالأنياب و الأضراس

ثم مدحه بقصيدة «لمن الحدوج تهزهن الأينق».

و هى القصيدة التى ختمها بقوله:

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۵۴ عطفا أمير المؤمنين فاننافى دوحة العلياء لا نتفرّق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا فى المعالى معرق

إلا الخلافة ميزتك فإننى أنا عاطل عنها و أنت مطوّق

فقال له القادر: على رغم أنف الشريف! و كانت هذه العبارة فيما يظهر أصل الفرقة بين الرجلين، فانصرف الشريف عن مدح القادر و أسقطه من حسابه، ثم مضى يمدح الوزراء و الملوك و لذلك حديث طويل يضيق عنه الوقت فى هذا المساء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۵

## صلات الشريف الرضى بالوزراء و الامراء و الملوك

ايها السادة:

حدثناكم عن صلات الشريف بالخلفاء، و فى هذه الليلة نحدثكم عن صلاته بالوزراء و الامراء و الملوك. و كنت أستطيع إغفال هذا البحث، أو الاكتفاء بكلمتين موجزتين تفصحان عن جوهر تلك الصلات، و لكنى راعيت الأدب معكم فآثرت الاستقصاء.

و الواقع ان مدائح الشريف ليست كسائر المدائح، لأنه لم يكن يتكسب بشعره على نحو ما كان يفعل بعض الشعراء الذين يفدون من بلاد بعيدة ليبيعوا أشعارهم فى بغداد، و إنما كانت مدائحه شاهدا على اشتباكه فى المعارك السياسية التى كانت تثور فى فارس و فى العراق، فالشريف الرضى شاعر سياسىّ، أعنى أن أشعاره كانت وسيلة إلى أغراضه السياسية، أو عنوان على متابعته لتقلب الأحوال السياسية، فهو شاعر «متحرك» كما يعبّر أهل بغداد فى هذه الايام.

و يجب النص أيضا على ان ممدوحيه لم يكونوا من الاغبياء، فأكثرهم كان يتذوق البلاغة العربية، و أكثرهم نوا من الفتيان البهاليل الذين يهيمون بكرائم المعانى، فليس من المستبعد أن يكون الشريف أنس بأرواحهم و أذواقهم، فطاب له أن يخصهم بالقصائد الجياد.

و المهم عندى أن تعرفوا أن حرص الشريف على الاتصال بالوزراء و الملوك لم يكن حرصا على منفعة رخيصة تقوّم بالدراهم و الدنانير، و إنما كان حرصا على منفعة عالية، هى أن يكون رجلا له شأن فى تصريف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۶

المعضلات السياسية، و قدتم له من ذلك بعض ما أراد، فاستطاع ان يكون صلة الوصل بين الحجاز و العراق و بين فارس و العراق، و بين الشام و العراق و إليكم أسوق بعض الامثال:

كانت إمارة الحج إلى أبى أحمد الموسوى ثم إلى ابنه الشريف الرضى، فهل تظنون أن هذا المنصب كان يضاف إلى هذين الرجلين بفضل الوراثة؟

قد يكون ذلك، و لكنى أرجو أن تصدقونى إذا قلت إن هذا المنصب كان يشترط فيمن يتولاه ان يكون على صلات بالقبائل العربية التى كانت تسد المنافذ إلى البيت الحرام. و التاريخ يشهد بأن أهل العراق و أهل فارس و أهل خراسان انصرفوا عن الحج أعواما كثيرة بسبب الخوف من أشواك الطريق، و كان يتفق فى احيان كثيرة أن تنهب قوافل الحجيج و ان يعود الحجاج إلى بلادهم منهوبين و مجروحين، و لا يكفى ان يقال ان الموسوى كان من الفرسان، و إن ابنه الرضى كان من الفرسان، و إنما يجب ان نفهم ان هذين الرجلين كانا يعرفان قيمة الصداقة فى العلائق «الدبلوماسية» فكانا يتصلان اتصالا ودّيا بأكثر القبائل و ينالان بالسلطة الروحية ما تعجز السيوف.

و قد رأيتم فيما سلف ان الموسوى كان يذهب إلى فارس للسفارة بين الشعبين و ليقيم قواعد الصلح بين الجيش البغدادى و الجيش الفارسى، و هذا يشهد بأن تسوية الشؤون المعقدة بين فارس و العراق كانت توجب ان يكون فى العراقيين رجال يؤتمنون على الارواح، و يهمهم ان يسود الصفاء بين أمم تفرّقها العنصرية و يجمع بينها الدين.

و كانت اشعار الشريف نوعا من الدعاية للعراق فى زمن لم تكن فيه جرائد و لا- مجلات: فكان يوزّع مدائحه ذات اليمين و ذات الشمال على من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۷

يتوسم فيهم القدرة على إنصاف العراق، و كان ابوه من قبل يصنع الصنيع نفسه بالوسائل الادبية و الدينية، و ذلك أسلوب من التلطف لا- يبرع فيه إلا- الأقلون أترونني أفصحت عما اريد؟ انا اريد ان اقرر ان الشريف كان فى مدائحه للخلفاء و الوزراء و الملوك رجلا سياسيا، و السياسة لا تنافى الصدق فى جميع الاحوال فهو كان يصادق و يعادى فى سبيل وطنه الذى جار عليه الزمان فى تلك العهود.

و كان يحاول ان يغنم لوطنه اصدقاء بين اولئك الذين حوّلوا منادح العراق إلى معسكرات.

و قد حملته هذه الرغبة على ان يفكر تفكيرا جديا فى مصاهرة ابى على وزير بهاء الدولة، و كان بهاء الدولة كما سترون قطب الاقطاب فى ذلك الزمان. و هذه المصاهرة لم تكن إلا وسيلة سياسية، فقد كان يدرك جيدا ان الوزراء فى ذلك العهد كان اليهم زمام الملوك، لانهم كانوا يصلون الى الوزارة بأموالهم و عصبياتهم، و كان اليهم الامر المطلق فى اكثر الشؤون.

و عقلية الشريف كانت عقلية سياسية: فهو يسترخص كل شىء فى سبيل المجد، و يستبيح اشتراء المناصب، و قد اتفق مرة ان يهجم قوم فى حضرته على رجل اسرف فى البذل لينال الوزارة على البديهة:

اشتر العز بما بيعفما العزّ بغال

بالقصار الصّفر إن شئتأو السّمر الطوال

ليس بالمغبون عقلامن شرى عزا بمال

إنما يدّخر المال لحاجات الرجال

و الفتى من جعل الاموالأثمان المعالى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۸

و ما نريد أن نغض من شاعرنا، و إنما نريد أن نصوره على ما كان عليه من أخلاق، و ليس يؤذيه أن نستبيح من التعبير ما استباح.

ثم أقول مرة ثانية إنه كان يريد أن يتزوج زواجا سياسيا، و الزواج السياسى معروف من قديم الأزمان، و قد أباحه الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فدخل فى مصاهرات كثيرة لتصل روحه إلى أشتات القبائل العربية، و ما على الشريف من لوم فى أن يسلك ذلك المسلك المقبول، ليكون صلة الوصل بين فارس و العراق.

و لكنه- وا أسفاه- خاب فى مسعاه! و قد سجّل خيبته الأليمة بقصيدتين: الاولى بائية، و الثانية دالية.

و كان يجب أن نقف طويلا فى تشريح هاتين القصيدتين، و لكن أين الوقت؟ فيكفى أن نذكر أن الشريف شعر بصدمة موجعة حين ضاعت تلك الفرصة الذهبية، و كان للرجل و هو من شعراء الوجدان أن يتألم لضياع البخت من فتاة نشأت فى النعيم. و الحسن المنعّم له مذاق خاص.

و لكنه وقف حسرته على ضياع المطمع السياسى فقال فى مطلع البائية:

أمانىّ نفس ما تناخ ركابهاو غيبة حظّ لا يرجّى إيابها

و وفد هموم ما أقمت ببلدةو هنّ معى إلا و ضاقت رحابها

و آمال دهر إن حسبت نجاحهاتراجع منقوضا علىّ حسابها

ثم قال:

ألا أبلغا عنى الموفّق قولةو ظنّى أن الطّول منه جوابها

أترضى بأن أرمى إليك بهمتىفأحجب عن لقيا علا أنت بابها

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۹ و أظما إلى درّ الأمانى فتنثنى‌بأخلافها عنى و منك مصابها

و ليس من الإنصاف أن حلّقت بكم‌قوادم عزّ طاح فى الجو قابها

و أصبحت محصوص الجناح مهضّماعلىّ غواشى ذلّة و ثيابها

تعدّ الأعادى لى مرامى قذافهاو تنبحنى أنّى مررت كلابها

لقد كنت أرجو أن تكونوا ذرائعى‌إلى غيركم حيث العلا و اكتسابها

فهذى المعالى الآن طواعى لأمركمو فى يدكم أرسانها و رقابها

إذا لم أرد فى عزكم طلب العلاففى عز من يجدى علىّ طلابها

و هذه الأبيات صريحة فى أنه لا يبكى ضياع الحظ من فتاة جميلة كان يشتهى أن تكون أنس حياته، و إنما هو يبكى فرصة سياسية ضاعت بضياع تلك المصاهرة المشتهاة.

و فى القصيدة الثانية يقول:

لك اللّه ما الآمال إلا ركائب‌و أنت لها هاد و حاد و قائد

أبى لك إلا الفضل نفس كريمةو رأى إلى فعل الجميل معاود

و طود من العلياء مدّت سموكه‌فطالت ذراه و اطمأن القواعد

و إنى لأرجو من علائك دولةتذلل لى فيها الرقاب العواند

و يوما يظل لخافقين بمزنةرذاذ غواديها الرؤوس الشوارد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۰ لأعقد مجدا يعجز الناس حلّه‌و تنحلّ من هام الأعادى معاقد

فمن ذا يرامينى ولى منك جنة و من ذا يدانينى ولى منك عاضد

علىّ رداء من جمالك واسع‌و عندى عزّ من جلالك خالد

فلا تتركنى عرضة لمضاغن‌يطارد فى أضغانه و أطارد

و لا صدود منك هانت عظائم‌تشقّ على غيرى و ذلّت شدائد

و لكنك المرء الذى تحت سخطه‌أسود ترامى بالردى و أساود

و هذا المطمح هو من شواهد الفحولة فى الشريف، الفحولة الحسية و الفحولة المعنوية، و كان شاعرنا يتشهى أن يحكم و يستطيل، و شهوة التحكم و السيطرة من أشرف عيوب الرجال.

أيها السادة:

ما أحب أن أضجركم فأطوف بكم على جميع ما دونت من صلات الشريف بالوزراء و الملوك، و يكفى أن تتضح الفكرة فى أذهانكم لترجعوا إلى أصولها فى ديوانه حين تشاءون.

و لكن لا بدّ من الوقوف عند مسألتين مهمتين: الاولى صلات الشريف بالحمدانيين، و الثانية صلاته ببهاء الدولة الذى كان فى زمانه ملك الملوك.

أما صلاته بالحمدانيين فلها اصول سياسية يعرفها المطلعون على التاريخ و ربما جاز أن نحكم بأن هواه معهم يرجع أيضا إلى أصول وجدانية، فقد كان يعطف على إحدى نسائهم، أو كانت إحدى نسائهم تعطف عليه. و قد مرت لذلك إشارة لا نعود اليها فى هذا المساء. و الرجل قد يعطف على أمة بأسرها من أجل امرأة يهواها أو تهواه.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۱

و عواطف الشريف نحو الحمدانيين تظهر فى مراثيه لمن عرف من رجالهم، كأن يقول:

و سرب بنو حمدان كانوا حماتهرعت فيه ذؤبان الليالى العوائث

فأين كفاة القطر فى كل أزمةو أين الملاجى منهم و المغاوث

و أين الجياد المعجلات إلى الوغىإذا غام بالنقع الملا المتواعث

إذا ما دعا الدعوان للبأس و الندىفلا الجود منزور و لا الغوث رائث

يرفّ على ناديهم الحلم و الحجاإذا ما لغا لاغ من القوم رافث

من المطعمين المجد بالبيض و القناملاء المقارى و العريب غوارث

إذا طرحوا عمّاتهم وضحت لهممفارق لم يعصب بها العار لائث

و قد تفجرت عواطف الشريف نحو الحمدانيين و هو يرثى أبا طاهر بن ناصر الدولة، و يظهر أن صداقته لذلك الامير بلغت من نفسه كل مبلغ، فقد رثاه أصدق رثاء، و تفجّع عليه أوجع تفجّع، حتى وقع لقوم من عقيل أن يغضبوا و أن يردّ عليهم الشريف فيقول:

ألام أبى رثيت زافرة كانوا نجوم الفخار أو لمعه

إن لا تكن ذى الاصول تجمعنايوما فإن القلوب مجتمعه

كم رحم بالعقوق نقطعهاو رحم الود غير منقطعه

و للشريف فى ذلك الامير مرثيتان، الاولى دالية:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۲ تفوز بنا المنون و تستبدّو يأخذنا الزمان و لا يردّ

و أنظر ماضيا فى عقب ماضلقد أيقنت أن الامر جدّ

ثم يخاطب المبكىّ فيقول:

أ إبراهيم أما دمع عينىعليك فما يعد و لا يحدّ

يغصّص بالاوائل منه طرفو يدمى بالاواخر منه خدّ

بكيتك للوداد و رب باكعليك من الاقارب لا يودّ

و إن بكاء من تبكيه قربىلدون بكاء من يبكيه ود

ثم يقول فى تحقير من قتلوه:

قتيل فلّه ناب كهامو كان العضب ضوّاه الفرند

و ذلّ بذل قاتله فأضحىلقاتله به عزّ و مجد

فيا أسدا يصول عليه ذئبو يا مولى يطول عليه عبد

و القصيدة كلها على هذا النسق الطريف.

أما القصيدة الثانية فهى اعجوبة فى الجودة و الرصانة و الخيال، و سنعود إلى درسها حين نتكلم عن المراثى فى السلسلة الثانية من هذه المحاضرات.

قلت إنى لن أطيل الحديث عن صلات الشريف بالوزراء و الامراء و إنى سأنتقل من كلامه عن الحمدانيين إلى وفائه لبهاء الدولة، و لكن لا بدّ من تذكير القارىء بان هناك شخصيات سياسية عرضنا لها فى مواطن مختلفة من هذه المحاضرات، أمثال شرف الدولة و عبد العزيز بن يوسف و الصاحب بن عباد.

و قبل أن نواجه الحديث عن بهاء الدولة نذكر أن الشريف كان له

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۳

ذوق لطيف فى التفرقة بين مقامات الخلفاء و مقامات الملوك، فهو كان ينشد الخلفاء شعره بنفسه، أما الملوك فكان يكتفى بارسال

القصائد اليهم و قد فطن بعض الدساسين إلى هذه التفرقة الذوقية فاغتابوه عند بهاء الدولة و اتهموه بالتكبر و الازدهاء.

فلما بلغته الدسيسة كتب إلى بهاء الدولة يقول:

جنانى شجاع إن مدحت و إنمالسانى إن سيم النشيد جبان

و ما ضرّ قوّالا أطاع جنانهإذا خانه عند الملوك لسان

و ربّ حيىّ فى السلام و قلبهوقاح إذا لفّ الجياد طعان

و ربّ وقاح الوجه يحمل كفّهأنامل لم يعرق بهنّ عنان

و فخر الفتى بالقول لا بنشيدهو يروى فلان مرة و فلان

و للشريف فى بهاء الدولة مدائح كثيرة جدا.

فمن هو بهاء الدولة؟ أكان يستحق ان ينفق الرضى فى سبيله كل تلك الثروة من الشعر الجيد؟

نظلم الأدب و التاريخ و نظلم صديقنا الشريف إذا تركنا القارىء يفهم أن بهاء الدولة لم يكن إلا طاغية يجيد ثلّ العروش كالذى صنع مع الطائع.

كان بهاء الدولة مع غطر سته شخصية فارسية مصقولة الحواشى، و كان يتذوق الأدب الرفيع، و كانت له أخلاق.

إى و اللّه، كانت له أخلاق! و الشاهد الآتى يفصح عما نريده:

كان لشرف الدولة خادم اسمه نحرير، و كان وفيا لسيده اصدق

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۴

الوفاء، و كان بهاء الدولة يسمع بوفائه فيشتد شوقه إليه، فلما توفى شرف الدولة و تولّى الامر بهاء الدولة كان هم الملك الجديد أن يجتذب نحريرا اليه ليجرى فى خدمته على ما كان يجرى عليه فى خدمة أخيه.

و لكن نحريرا امتنع، و تظاهر بلبس الصوف، ليفهم الناس أنه طلق دنياه .

قال الراوى: كنت قائما بين يدى بهاء الدولة و هو يخاطب نحريرا بقوله: لا تزهد فىّ مع رغبتى فيك، فأنا أولى بك على ما كنت عليه من قبل و نحرير يقبّل الارض، و يستعفى إلى أن انتهى بهاء الدولة إلى أن قال له باللغة الفارسية و قد دمعت عيناه: إفعل للّه! فأقام نحرير على أمر واحد فى اللجاج الذى لا يقابل الملوك بمثله و انصرف من بين يديه .

ثم زين السفهاء لبهاء الدولة أن يأذن بالقبض على نحرير.

قال الراوى:

و بقى أبو الحسن محمد بن عمر و نحرير، فقال له محمد بن عمر: يا هذا، قد أسرفت فى الدالة و من أنت و ما قدرك حتى تمتنع من خدمة هذا الملك العظيم- و أغلظ له فى القول و نحرير مطرق- فلما زاد الأمر عليه رفع رأسه و قال له: أيها الشريف! أين كان هذا القول منك فى أيام مولاى و أنت ترى أفضل آمالك إذا ابتسمت فى وجهك؟ فأما الآن و أنا على هذه الحال فاستعمال ما أنت مستعمله لؤم قدرة، و سوء ملكة، و كيف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۵

ألام على ترك الدنيا بعد ملك ابتاعنى بألف درهم ثم رفعنى إلى أن كنت تخدمنى و لا أخدمك، و تحتاج إلىّ و لا أحتاج إليك .

و ما نريد أن نأتى على بقية القصة، فليس يسر القارىء أن يعلم ما صنعت الدسائس التى انتهت بقتل نحرير، فقد يكون فى ذلك ما يحقّر الجنس الذى اشترك فى تكوينه آدم و زوجته حواء! و أريد أن أقول أيها السادة إن بهاء الدولة كان رجلا له قلب و ذلك مما يعطف عليه شاعر مثل الشريف، و هو قد استطاع أن يثبت قواعد الملك فى العراق و الموصل و خوزستان و شيراز و كرمان، و استطاع أن يطمئن على بغداد فيتركها و يقيم فى خوزستان و يولّى عليها حاكما يسميه عميد العراق.

و معنى ذلك أن العراق شهد فى عهده أطياف الرخاء.

قلت إن بهاء الدولة كان يتذوق الأدب الرفيع، و شاهد ذلك أن الشريف كان يداعبه بالشعر فيرسل اليه القصائد الوحشية و القصائد الإنسية.

كان يخاطبه بالشعر الوحشى فيقول:

رأى على الغور وميضا فاشتاقما أجلب البرق لماء الآماق

ما للوميض و الفؤاد الخفاققد ذاق من بين الخليط ما ذاق

داء غرام ما له من إفراققد كلّ آسية و قد ملّ الراق

لآل ليلى فى الفؤاد أعلاقتزيد من حيث تقضى الاشواق

إلى آخر القصيدة و هى طويلة.

و كان يخاطبه بالشعر الإنسى فيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۶ خلّ دمعى و طريقهأحرام أن أريقه؟

كم خليط بان عنىما قضى الدمع حقوقه

يا شقيقى و القنا يغضبفى العدل شقيقه

عاصيا ناصحه الأقربودّا و رفيقه

من لبرق هبّ و هنامن أبانين و سوقه

من شريقىّ الحمىينشد نجدا و عقيقه

من غمام كالمتالىينقل الليل و سوقه

لاح فاقتاد فؤاداعازب اللبّ مشوقه

طال ذكر النفسأرواح زرود و بروقه

و عقابيل غرامىذكر القلب حقوقه

و خيال دلس القلبعلى العين طروقه

كذب تحسبه الصبّمن الشوق حقيقه

أنعمى يا سرحة الحىّو إن كنت سحيقه

أتمنّى لكك أن تبقىعلى النأى و ريقه

ثمر حرّم واشيكعلينا أن نذوقه

و هذا نسيب مرقص.

ثم يمدح بهاء الدولة فيقول:

يا قوام الدين و الفارجللدين مضيقه

أنت راعيه و هاديهإذا ضل طريقه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۷ من رجال ركبوا المجدفما ذمّوا عنيقه

معشر كانوا قبيلالعز قدما و فريقه

و ملوك فى ثراهمضرب المجد عروقه

و مغاوير الحفيظاتو فرسان الحقيقة

حسب يحسب من فيهو أعراق عريقه

من ترى يدفع روقيهو من يطلع نيقه

لهم الأيدى الطوال الطولو البيض الزّليقه

و مواريث مقارى الليلو النار العتيقه

بوجوه واضحاتفى دجى الأزل طليقه

و أكفّ منفقاتفى الندى الغمر عريقه

و بأخلاق رقاقدون أعراض صفيقه

تخذوا المجد أبا مااستحسنوا قطّ عقوقه

إن فيهم مولد الملكو من قبل علوقه

ناشئا تسلمه الامّإلى الظّئر الشقيقه

هم رموا عنى جليل الخطبيدمى و دقيقه

طردوا الأيام عن ورددمى طرد الوسيقه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۸ أطلقونى من إسار الدهر إطلاق الرّبيقه

إلى أن يقول:

عشت تستدرك فيناخطل الدهر و موقه

واثقا بالدهر تعطىمن رزاياه وثيقه

كلما عفت صبوح العمرعوطيت غبوقه

مطلع الشارق إن غاب رجا الناس شروقه

آمن المرتع ترعىروضة العز أنيقه

إن يكن عيدا فأيامك أعياد الخليقه

إنها أنوار أحداق و نوّار حديقه

ان نعّاق الاعادىأسكت الذلّ نعيقه

لفظ الملك شجاهو أساغ اليوم ريقه

و هـذا الشاهـد المطوّل لا يهمنا لـذاته، كما تظنون، و انما يهمنا لدلالته على أريحيهٔ الشـريف و هو يمدح بهاء الدولهٔ، و هذه الاريحيهٔ تحتاج الى قليل من البيان:

ان الشـريف ظل موصول الأواصـر بمودهٔ بهاء الدولهٔ نحو عشـرين سنهٔ، و هى مودهٔ كان لها أثر كبير فى شاعرهٔ الشريف، لأنها أفسحت أمامه المجال للتطريب و التغريد، و راضـته على الطواف حول كرائم المعانى، فقد كان الشريف يحب أن يمدح الرجال، لا للتكسب و لا للتزلف و لكن للمعنى الـذى شـرحناه فى الطبعـهٔ الثانيهٔ من كتاب «البدائع» و هو معنى دقيق لم يتنبه اليه احد من الذين أرخوا الادب العربى، فالمدائح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۹

كانت سـجلا لما يفهم الشعراء من مكارم الاخلاق، و كان الشريف فى جدود هذا الفرض يسره أن يتكلم عن الشمائل و الخصال التى ترفع أقدار الرجال.

فمدائح الشـريف صور لما كان يؤمن به من الحقائق الاخلاقيهٔ، و شاهد على أنه كان فى أعماق قلبه يود التخلق بما اصطفاه لممدوحيه

من أخلاق.

و هـذه القصـيدة فيهـا إشـارة إلى ماضـى الفرس، حتى النـار، و هى فى شـعره نار عتيقـة أى كريمـة، و العتق هو الكرم فى الخيل و فى الصهباء.

و أريد أن أقول إن ثناء الشـريف على ماضـى الفرس كان شواهد تلطفه مع بهاء الدولة، لأن الشريف له قصائد فى تفضيل العرب على الفرس، و بعبارة أدق تفضيل مجد الإسلام على مجد الفرس، كالقصيدة التى قالها حين اجتاز بالمدائن و شهد إيوان كسرى سنة ۳۹۷.

قربوهن ليبعدن المغاراو يبدّلن بدار الهون دارا

و كان يتفق له أن يتغنى بمجد العرب و ما صنعوا فى قهر الفرس و هو يمدح بهاء الدولة، فما تعليل ذلك؟

أغلب الظن أن الفرس لم يكن من همهم أن يقاوموا مجد العرب فى الحدود التى رسـمتها الشّـعوبية، لأن الفرس أسلموا و تعصبوا أشد التعصب للغة العربية، و كان إسلامهم و استعرابهم من أهم الامجاد فى حياة العروبة و الاسلام.

و أغلب الظن أيضا أن الشـعوبية لم تكن نزعة إجماعية فى حياة الفرس و إنما هى مناوشات أدبية أثارها الادباء، و هم مصدر الشـر فى بعض الاحيـان! أقول هـذا لأفهم و تفهموا كيف جاز للشـريف أن يـذكر انتصار العرب على الفرس فى قصـيدة يمـدح بها بهاء الـدولة فينص على أن عارض

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۰

الحرب يوم ذى وقار:

رحض الاغلف فى تيارهورد العلج و ما كاد يرد

يصطلى نار طعان مضّةأوقدت فيها نزار بن معسد

و الحقيقة أن الفرس فى مؤلفاتهم و أشـعارهم كانوا من نماذج القومية العربية الاسلامية، فلم يكن يجرحهم أن يقول شاعر: إن الإسلام انتصر عليهم، لأنهم رحبوا بالإسلام منذ عرفوه، و كانت بلادهم من الحصون التى اعتزت بها لغة القرآن.

و إنما نوهت بهذه القضـية لا شـرح كيف كان الشـريف يتردد بين الإشارة بمجد العرب و مجد الفرس، و كيف جاز له أن يدور حول هذه المعانى بلا تهيب و لا إشفاق.

و ما يجوز لنا أيها السادة أن نزن التاريخ بموازين الحوادث فى هذه الأيام، فالامم الإسـلامية فى هذا العصـر يسـتقلّ بعضـها عن بعض، بحيث يظن الغافل أنها كانت كـذلك فى الايام الخاليـة، و ما كانت كـذلك، و إنما كان يتنقل المؤمن من أرض إلى أرض فلا يفهم أنه انتقل من وطن إلى وطن، و إنما كان يشعر بأنه يسير تحت راية الاسلام، و لم تكن ياء النسب إلا علامة تمييز لا علامة تفريق.

أيها السادة كانت مدائح الشريف لبهاء الدولة فرصة عظيمة لجموح الخيال، ففى تلك المدائح لفتات ذوقية و روحية و خلقية.

و الذين اهتموا بغراميات الشريف وقفوا عند الحجازيات، وفاتهم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۱

أن الشريف كانت له فى مدائحه و ثبات غرامية، كأن يقول:

من رأى البرق بغوريّ السندفى أديم الليل يفرى و يقد

حيرة المصباح تزهوه الصّباخلل الظلماء يخبو و يقد

كلما أنجد علويّ السّناقام بالقلب اشتياق و قعد

كم أضاء البرق لى من معهدذاب دمع العين فيه و جمد

و مغان أنبت الحسن بهاهيفا ترعاه عينى وغيد

كلما عاود قلبى ذكرهالعب الدمع بجفنىّ وجد

إن ريم السّرب أدنى لى الجوىو نأى بالصبر عنى و الجلد

بندى غضّين غصن ونقاو جنى عذبين شهد و برد

و كأن يقول:

ذكرت على بعدها من منالىمنازل بين قبا و المطال

و مبنى قباب بنى عامرعلى الغور أطنابهن العوالى

عقائل علّمهن العفافوصل المطال و مطل الوصال

مرابع يشكو بهن الجراحأسود الشّرى من ظباء الرمال

مضاحكهنّ عقود العقودو أجيادهن لآلى اللآلى

أبعد الأسى عاد عيد الغرامو قرف من الشّوق بعد اندمال

هوى بين مقتصّ إثر الغزالولى و منتص جيد الغزال

و ما طلب البذل من باخلبميسوره غير داء عضال

و ما زال يلوى ديون الهوىو يؤيسنا من قليل النوال

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۲ إلى أن قنعنا بزور المزاربعد النوى و خيال الخيال

و كأن يقول:

زار و الركب حرامأوداع أم سلام

طارقا و البدر لايحفزه إلا الظلام

بين جمع و المصلىريم سرب لا يرام

و حلول ما قرى نازلهم إلا الغرام

بدّلوا الدور فلمانزلوا القلب أقاموا

يا خليلىّ اسقيانىزمن الوجد سقام

و صفالى قلعة الركب و لليل مقام

من ألال حفز و العيس كما ريع النّعام

فزفير و نشيجو عجيج و بغام

و منى أين منى منى لقد شطّ المرام

هل على جمع نزولو على الخيف خيام

يا غزال الجزع لو كان على الجزع لمام

أحسد الطوق على جيدك و الطوق لزام

و أعضّ الكف إن نال ثناياك البشام

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۳ و أغار اليوم إن مرّعلى فيك اللثام

أنا عرّضت فؤادىأول الحرب كلام

أن جعلت القلب مرمى كثرت فيه السهام

من يداوى داء أحشائك و الداء عقام

و أنا أكتفى بهذه الشواهد الثلاثة لاريكم أن مدائح الشريف فى بهاء الدولة تجمع أطايب من المعانى الذوقية. و القطعة الاخيرة من

الشعر النفيس، و عهدى بالاستاذ محمد الهياوى يرحل من «حدائق القبة» إلى القاهرة ليسمعها من الاستاذ أبى بكر المنفلوطى، كان الشريف هو وحده الذى يحسن أن يقول:

زار و الركب حرامأوداع أم سلام

أما المعانى الروحية فكثيرة، يمثلها تلطفه مع بهاء الدولة إذ يقول:

لا ضحا ظلكم يوما و لامطل الإقبال منكم ما وعد

و تفارطتم على رفه السّرىمورد النعماء و العيش الرغد

و إذ يقول:

سيبلو منك هذا الصوم خرقارحيب الباع فضفاض الرداء

تصوم فلا تصوم عن العطاياو عن بذل الرغائب و الحباء

و إذ يقول:

لا زعزعتك الخطوب يا جبلو بالعدا حلّ لا بك العلل

قد يوعك الليث لا لذلتهعلى الليالى و يسلم الوعل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۴ لا طرق الداء من بصحتهيصح منا الرجاء و الأمل

حاشاك من عارض تراع بهذاك فتور النعيم و الكسل

النجم يخفى و أنت متضحو الشمس تخبو و أنت مشتعل

ما صرف الدهر عنك أسهمهفكل جرح يصيبنا جلل

باق تخطّاك كل نائبةإلى العدا و النوازل العضل

فما يقول الأعداء لا بلغوا السّؤلو لا أدركوا الذى أملوا

بنا الأذى لا بكم إذا نزل الخطبطروقا و صمّم الأجل

و دمتم للعلا و عيشكمغضّ و راووق عزكم خضل

لا عجب أن نقيكم حذرانحن جفون و أنتم مقل

و إذ يقول فى تعزيته عن إحدى بناته و هى التى عقد عليها للخليفة القادر باللّه:

لهان الغمد ما بقى الحسامو بعض النقص آونة تمام

إذا سلك العلا سلمت قواهفلا جزع إذا انتقص النظام

و أهون بالمناكب يوم يبقىلنا الرأس المقدّم و السّنام

و ما شكوى المناهل حين تمسىمغيّضة إذا بقى الغمام

و هل هو غير فذّ أخلفتهلنا العلياء و النعم التّوام

و ما شرر تطاوح عن زنادبمفتقد إذا بقى الضرام

أفق يا دهر من أمسيت تحدوو قد منع الخزامة و الزمام

قدعت مبرّز الحلبات يغدوجموحا لا ينهنهه اللجام عبقرية الشريف الرضى ؛ ج۱ ؛ ص۱۷۴

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۵ و لودا مثل ما خالست منهو أنت بمثله أبدا عقام

أما اللفتات الخليقة فكثيرة جدا، كأن يقول:

كان قضاء الإله مكتوبالولاك كان العزاء مغلوبا

ما بقيت كفك الصناع لنافكل كسر يكون مرءوبا

ما احتسب المرء قديهون و ماأوجع ما لا يكون محسوبا

نهضا بها صابرا فأنت لهاو الثّقل لا يعجز المصاعيبا

فقد أرتك الأسى و إن قدمتعن يوسف كيف صبر يعقوبا

و ما نقصر المعانى الخلقية على الشعر الذى يجرى مجرى الامثال، و إنما هى تشمل كل ما أشاد فيه بالشمائل و الخصال، و من الواضح ان هـذا الحكم ينسـاق على جميع المدائـح فى الشـعر العربى، و لكن لا مفر من الاعتراف بأن الشـريف كان ينوّه بخلائق الرجال و هو يحسها أقوى إحساس.

أما بعد فليس من همنا أن نستقصـى ما قال الشـريف فى بهاء الدولة، فذلك بحث يطول، و يكفى أن تكونوا عرفتم أن الشـريف عاش مدة و هو فى حركة عقلية و ذوقية و معاشـية بفضل ذلك الملك، و تشـهد قصائد الديوان بأن بهاء الدولة أغدق عليه نعم التشـريف و التبجيل و انه كان يعتمد عليه فى كثير من الشؤون.

و فى جمادى الآخرة سنة ۴٠٣ مات بهاء الدولة فرثاه الشريف بهذه القصيدة الباكية:

عبقرية الشريف الرضى، ج١، ص: ١٧۶ دع الذّميل إلى الغايات و الرّتكاماذا الطّلاب أترجو بعدها دركا

مالى أكلّفها التهجير دائبةعلى الدّجى و قوام الدين قد هلكا

حلّ الغروض فلا دار ملائمةو لا مزور إذا لاقيته ضحكا

اليوم صرّحت الجلّى و قد تركتبين الرجاء و بين اليأس معتركا

رزيئة لم تدع شمسا و لا قمراو لا غماما و لا نجما و لا فلكا

لو كان يقبل من مفقودها عوضلأنفق المجد فيها كل ما ملكا

قد أدهش الملك قبل اليوم من حذرو إنما اليوم أذرى دمعه و بكى

أمسى بها عاطلا من بعد حليتهو هادما من بناء المجد ما سمكا

من للجياد مراعيها شكائمهايحملن شوك القنا اللذاع و الشّككا

يطابها تحت أطراف القنا زلقامن الدماء و من هام العدا نبكا

من للظّبا يختلى زرع الرقاب بهاحكم القصاقص لا عقل لما سفكا

من للقنا جعلت أيدى فوارسهمن القلوب لها الاطواق و المسكا

من للأسود نهاها عن مطاعمهافكم وردن فريسا بعد ما انتهكا

عبقرية الشريف الرضى، ج١، ص: ١٧٧ من للخطوب ينجّى من مخالبهاو ينزع الظفر منها كل ما سدكا

من معشر أخذوا الفضلى فما تركوامنها لمن يطلب العلياء متّركا

قدّوا من البيض خلقا و الحيا خلقاعيصا ألفّ بعيص المجد فاشتبكا

لو أنهم طبعوا لم ترض أوجههمدرارى الليل لو كانت لها سلكا

هم أبدعوا المجد لا أن كان أولهمرأى من الجد فعلا قبله فحكى

الراكبين ظهورا قلما ركبتو المالكين عنانا قلما ملكا

يا صفقة من بياع كلها غررمن ضامن للعلامن بعدها الدركا

خلالها كل ذئب مع أكيلتهمن واقع طار أو من عاجز فنكا

الموت أخبث من أن يرتضى أبدالا سوقة بدلا منه و لا ملكا

لا تتبعوا فى المساعى غير أخمصهفأخصر الطّرق فى العلياء ما سلكا

ما مثل قبرك يستسقى الغمام لهو كيف يسقى القطار النازل الفلكا

لا يبعد اللّه أقواما رزئتهملو ثلّموا من جنوب الطود لا نهتكا

فقدتهم مثل فقد العين ناظرهايبكى عليها بها يا طول ذاك بكا

إذا رجا القلب ان ينسيه غصتهما يحدث الدهر أدمى قرحه و نكا

إن يأخذ الموت منا من نضنّ بهفما نبالى بمن بقّى و من تركا

إنى أرى القلب ينزو لاذكارهمنزو القطاطة مدّوا فوقها الشركا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۸ لا تبصر الدهر بعد اليوم مبتسّماإن الليالى أنست بعده الضحكا

و كذلك كان بهاء الدولة آخر من اعتز الشريف بمدحه من بين الملوك، و ربما كان صادقا فيما ادعاه من ذهاب الضحك بذهاب ذلك الفقيد، فان الشريف لم يعمّر من بعده طويلا.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۹

## العلا و المعالى فى قصائد الشريف

أيها السادة:

أريناكم فيما سلف صورا كثيرة من صلة الشريف بعصره و صلاته بمن عرف فيه من علماء و شعراء و أمراء و خلفاء و ملوك، و أريناكم كيف عرف النعيم و البؤس و الضحك و البكاء.

و الآن نحدثكم عن غرامه بالمجد، و هيامه بالعلياء، و فنائه فى التخلق بأخلاق الأبطال.

و الشريف فى هذه الناحية هو صورة الشاعر الحق، لأن الشاعر الحق لا يخلو قلبه أبدا من التسامى إلى كرائم المقاصد و شرائف الغايات، و هو قد يلهو و قد يلعب، و لكنه يظل مشغول القلب بما يتسامى اليه، و تدور خواطره حول أمانيه فى كل وقت، و إن ظنه الناس من اللاهين.

و ما رأيتم من لهو الشريف و ما سترون، لم يكن لهو خصيان، و إنما كان لهو فحول، فهو لم يكن فى غرامياته من الشعراء الضعفاء الذين يستريحون إلى البكاء و الانين، و إنما كان شاعرا فحلا يرى الحسن لم يخلق إلا لغرامه الجموح، و سترون فيما بعد أنه تزوج و أنجب، و لم يترك الدّنيا إلا و هو ملء العيون و القلوب.

أيها السادة:

نحن مقبلون على مصافحة الجبل الاشمّ، نحن مقبلون على مواجهة الفارس الذى بذّ جميع الفرسان حين قال:

نبهتهم مثل عوالى الرماحإلى الوغى قبل نموم الصباح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۰ فوارس نالوا المنى بالقناو صافحوا أغراضهم بالصّفاح

لغارة سامع أنبائهايغصّ منها بالزّلال القراح

ليس على مضرمها سبّةو لا على المجلب منها جناح

دونكم فابتدروا غنمهادمى مباحات و مال مباح

فإننا فى أرض أعدائنالا نطأ العذراء إلا سفاح

يا نفس من همّ إلى همّةفليس من عبء الأذى ستراح

قد آن للقلب الذى كدّهطول مناجاة المنى أن يراح

لا بدّ أن أركبها صعبةوقاحة تحت غلام وتاح

يجهدها أو ينثنى بالردىدون الذى قدّر أو بالنجاح

الراح و الراحة ذلّ الفتىو العزّ فى شرب ضريب اللقاح

فى حيث لا حكم لغير القناو لا مطاع غير داعى الكفاح

و أشعث المفرق ذى همةطوّحه الهمّ بعيدا فطاح

لما رأى الصبر مضرّا بهراح و من لا يطق الذل راح

دفعا بصدر السيف لما رأىأن لا يردّ الضيم دفعا براح

عبقرية الشريف الرضى، ج١، ص: ١٨١ متى أرى الزوراء مرتجّةتمطر بالبيض الظّبا أو تراح

يصيح فيها الموت عن ألسنمن العوالى و المواضى فصاح

بكل روعاء عظيّيّة يحثّها أروع شاكى السلاح

كأنما ينظر من ظلهانعامة زيّافة بالجناح

متى أرى الأرض و قد زلزلتبعارض أغبر دامى النّواح

متى أرى الناس و قد صبّحواأوائل اليوم بطعن صراح

يلتفت الهارب فى عطفهمروّعا يرقب وقع الجراح

متى أرى البيض و قد أمطرتسيل دم يغلب سيل البطاح

متى أرى البيضة مصدوعةعن كل نشوان طويل المراح

مضمّخ الجيد نؤوم الضّحى كأنه العذراء ذات الوشاح

إذا رداح الرّوع عنّت لهفرّ إلى الكعاب الرّداح

قوم رضوا بالعجز و استبدلوابالسيف يدمى غربه كأس راح

توارثوا الملك و لو أنجبوالورّثوه عن طعان الرماح

غطى رداء العز عوراتهمفافتضحوا بالذل أىّ افتضاح

إنى و الشاتم عرضى كمنروّع آساد الشّرى بالنّباح

عبقرية الشريف الرضى، ج١، ص: ١٨٢ يطلب شأوى و هو مستيقنأن عنانى فى يمين الجماح

فارم بعينيك مليّا تروىوقع غبارى فى عيون الطّلاح

و ارق على ظلعك هيهات أنيزعزع الطّود بمرّ الرياح

لا همّ قلبى بركوب العلايوما و لا بلّ يدى بالسماح

إن لم أنلها باشتراط كماشئت على بيض الظّبا و اقتراح

يطمح من لا مجد يسمو بهإنى إذا أعذر عند الطّماح

و خطة يضحك منها الردىعسراء تبرى القوم برى القداح

صبرت نفسى عند أهوالهاو قلت من هبوتها لا براح

إما فتى نال العلا فاشنفىأو بطل ذاق الردى فاستراح

ماذا ترون، أيها السادة، حدثونى ماذا ترون؟

هل رأيتم فى الشعر كله قصيدا يشبه هذا القصيد؟

إن باب الحماسة فى ديوان الحماسة لو وضع كله فى الميزان لشالت كفته و رجحت كفة هذه القصيدة، و لكن أين من يفهم المعانى.

إن هـذا القصيـد خليق بأن يكون «نشـيد الفتوّة العربيـة» و أهل لأن يحفظه جميع الشـبان فى سائر البلاد العربية، فهو جذوة من الفتوّة، و قبس من الرجولة، و شهاب من العزم المصمّم الذى يطيح المصاعب و الأهوال.

أرأيتم:

نبهتهم مثل عوالى الرماحإلى الوغى قبل نموم الصباح

أرأيتم هـذه الصورة، صورة الفتـك، صورة القائـد الـذى يختـال بما يصـنع و هو ينبه جنوده إلى الحرب قبل أن تظهر تباشـير الصـباح!

أرأيتم كيف وصف جنوده بأنهم مثل عوالى الرماح!

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۳

انظروا هذه الصورة ثم تذكروا ما يقابلها من الصور، فهناك شـعراء ينبهون رفاقهم أيضا، و لكنهم لا ينبهون إلى الاصـطباح بالحرب، و إنما ينبهونهم إلى الاصطباح بالصهباء.

أرأيتم كيف ينبه الجنود:

لغارة سامع أنبائهايغصّ منها بالزّلال القراح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الحرب التى تغصّ سامع أخبارها بالماء القراح فكيف ترونها تصنع بمن يصطلى لظاها؟

أرأيتم كيف يشوّق جنوده إلى الحرب فيقول:

دونكم فابتدروا غنمهادمى مباحات و مال مباح

فهو يطمعهم فيما سينالون من الأموال و من النساء، و هى مطامع حسية كانت على الدهر من أعظم مغانم الحروب.

أرأيتم كيف يحدّد مقامه و مقام جنوده من الحقائق الاخلاقية فيقول:

فاننا فى أرض أعدائنالا نطأ العذراء إلا سفاح

و هذه الاخلاق تبدو فى بشاعة الوحشـية، و لكنّ للشاعر عذرا و أنتم يلومون، فهو يسجّل أخلاق الجنود المغاوير، و الجنود المغاوير لا يعرفون المصقول من آداب الناس، فالجندية هى فى ذاتها وحشية، و هل اشتقّت الفروسية إلا من الافتراس؟

ثم يقول:

يا نفس من همّ إلى همۀفليس من عبء الأذى مستراح

قد آن للقلب الذى كدّهطول مناجاة المنى أن يراح

فيصوّر لكم قلق الرجل الطمّاح الذى تغرقه مطامحه فى بحر من الهموم فلا يرى نجاته فى غير القتال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۴

ثم يقول:

لا بدّ أن أركبها صعبۀوقاحۀ تحت غلام وقاح

يجهدها أو ينثنى بالردىدون الذى قدّر أو بالنجاح

و الغلام فى هذا الشعر هو الفتى، و الشاعر لا يرى لنفسه غير غايتين:

النصر أو الموت، و هو معنى سيكرره فى آخر القصيدة إذ يقول:

إما فتى نال العلا فاشتفىأو بطل ذاق الردى فاستراح

و هـو بهـذا سـبق الفرنسـيين إلى هـذه الحكمـة العاليـة، سـبقهم بمئـات السـنين إلى الحكمـة المسـطورة على محراب البـانتيون فى باريس Vainore ou mourir : و لم يكن الشريف أول من قال هذا المعنى بين شعراء العرب، و لكنه أورده موردا قويا جدا بحيث

لا يكون من المغالاة ان نعده من معانيه المبتكرات:

ثم يقول:

الراح و الراحة ذل الفتىو العزّ فى شرب ضريب اللقاح

فى حيث لا حكم لغير القناو لا مطاع غير داعى الكفاح

فنفهم عن طريقه أعظم معضلة فى تربية الابدان و النفوس، و هل نسيتم ان الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم ليتربوا فى البادية؟ هنا نفهم السر:

فاللغويون يظنون ان الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية لينشأوا على فصاحة الاعراب، و هذا له وجه، و إنما كان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية لينشأوا على الصراحة و الصرامة و الطغيان. فالحكم فى البوادى لا يكون لغير السيف و الرمح، و عيش البادية مران عنيف على الخشونة و الصلابة و الفتك.

و قد سمعتم ألف مرة أن الترف هو داء الامم، داؤها العقام الذى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۵

يعزّ منه الشفاء، و انما كان الترف داء الامم لأنّه يجردها من الخشونة التى لا يمكن بغيرها صراع و لا قتال.

إن ربيب البادية هو وحده الذى يقدر على منازلة الطبيعة فى رعودها و بروقها و جحيمها، أما ربيب الحواضر فهو كما قال توفيق البكرى «غادة ينقصها الحجاب، ينظر فى المرآة و لا ينظر فى كتاب» أو كما قال الشريف:

مضمّخ الجيد نؤوم الضّحى كأنه العذراء ذات الوشاح

إذا رداح الروع عنّت لهفرّ إلى ضم الكعاب الرداح

و أنتم ترون أن الامم التى ليست عندها بادية، تخلق لنفسها بادية، و هل كان نظام الكشافة إلا رجوعا إلى النظام البدوى الذى مكّن أسلافنا من أن يكونوا أشجارا قوية تقاوم الزعازع فى مختلف البقاع و الأجواء.

إنما كان الترف داء الامم لأنه يورث اللين، و الشاب اللين لا يصلح لقتال و لا صراع.

و يصور الفتى الصوّال فيقول:

و أشعث المفرق ذى همةطوّحه الهم بعيدا فطاح

لما رأى الصبر مضرا بهراح و من لا يطق الذّل راح

دفعا بصدر السيف لما رأىأن لا يرد الضيم دفعا براح

فالفتى عنده هو الأشعث المفرق، أما صاحب المفرق المعطر فليس من الفتيان، الفتيان المغاوير الذين يأبون الضيم و يقارعون الخطوب. و أنتم قد ترون فى دنياكم فتيانا من أبناء الزمان يضيّعون فى تزيين مفارقهم ما يضيّعون، و هم فتيان لهم شأن فى التمدن الحديث، و إليهم مصاير الامور فى أكثر الاحيان و لكنهم سيظلون حيث وقفتهم نفوسهم الصغيرة فلا يعرفون دفع الضيم بالسيف حين لا يغنى دفعه بالراح، فهم كما قال الشريف:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۶ قوم رضوا بالعجز و استبدلوابالسيف يدمى غربه كأس راح

توارثوا الملك و لو أنجبوالورّثوه عن طعان الرماح

و للشريف فى هذه القصيدة إشارات لا تخفى عليكم، فقد وجه إلى خصومه كلمات أشد من وقع النبل، و حق لمثله أن يقول:

يطمح من لا مجد يسمو بهإنى إذا أعذر عند الطمّاح

- صدقت، أيها البطل، صدقت! و يتوثب الفارس إلى الفتك فيقول:

و إن قعودى أرقب اليوم أو غدالعجز فما الإبطاء بالنّهضان

سأترك فى سمع الزمان دويّهابقرعى ضراب صادق و طعان

و أخصف أخفاقا بوقع حوافرإلى غاية تقضى منى و أمانى

فإن أسر فالعلياء همى و إن أقمفإنى على بكر المكارم بانى

و إن أمض أترك كل حىّ من العدايقول: ألا للّه نفس فلان

فهذا الفارس ينكر الترقب، و يراه من العجز، و يشوقه أن يتأثر المتنبى الذى كان يرى المجد فى الفتك و الطعان، و يؤمن بأنه الفائز فى كل حال، فهو إن نهض فإلى الحرب، و إن قعد فلبناء المجد، و يشعر بأن أعداءه سيترحمون عليه يوم يموت.

و الأبيات الآتية قالها الشاعر فى مطلع صباه، و الظاهر أنه كان مفطورا على الفتوّة منذ الحداثة، و إلا فكيف صح له أن يقول و هو فى سن المراهقين:

ستعلمون ما يكون منىإن مدّ من ضبعىّ طول سنى

أ أدع الدنيا و لم تدعنىيلعب بى عناؤها المعنّى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۷ ناطحة بالجمّ هام القرننطاح روق الجازىء الأغنّ

وسعت أيامى و لم تسعنىأفضل عنها و تضيق عنى

لم أنا مثل القاطن المبنّ أسحب بردى ضرع و أفن

ولى مضاء قطّ لم يخنىضمير قلبى و ضمير جفنى

أحصل من عزمى على التمنىو ليتنى أفعل أو لو انى

راض بما يضوى الفتى و يضنىأسّس آبائى و سوف أبنى

قد عزّ أصلى و يعزّ غصنىغنيت بالمجد و لم أستغن

إنّ الغنى مجلبة للضّنّو للقعود و الرضا بالوهن

الفقر ينئى و الثراء يدنىو الحرص يشقى و القنوع يغنى

إن كنت غير قارح فإنىأبذّ جرى القارح المسنّ

جننت بأسا و الشجاع جنىآثار طعن الدهر فى مجنّى

تشهد لى أن الزمان قرنىسوف ترى غبارها كالدّجن

قساطلا مثل غوادى المزنتجرى بضرب صادق و طعن

جرى عزالى المطر المستنّإن غبت يوما عنك فاطّلبنى

بين المواضى و القنا تجدنىأمام جيش كجنوب الرّعن

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۸ جون الذّرا أقود مرجحن أنفض عنى نقعه بردنى

لتعرفنّى و لتعرفنّىأيام أفنى بالقنا و أغنى

أفرّ عين الفاقر المرنّعساى أنفى الضيم أو لعنّى

كم صبر خافى الشخص مستجن منطمر من الأذى فى سجن

مرتهن بهمة تعنّىيا ليتها بنهضة فدتنى

من قبل أن يغلق يوما رهنى متى ترانى و الجواد خدنى

و النصل عينى و السنان أذنىو أمى الدرع و لم تلدنى

أجرّ فضل ذيلها الرفن ما احتبس الرزق فساء ظنى

و لا قرعت من قنوط سنى‌يا أيها المغرور لا تهجنى

و عذ بإغضائى و استغذنى‌و احذر عداء قاطع فى ضمنى

ينطق عنى بلسان ضغنى‌نبهت يقظان قليل الأمن

مخرّق الثوب بطعن اللّدن يا دهر سيفى معقلى و حصنى

و الخوف يغرى طلبى فخفنى‌يا ليت مقدورك لم يؤمنى

جنيت من قبل و سوف أجنى‌أثنى يدى و العزم أن أثنّى

فما رأيكم فى هذا الطفل الذى أنضجه العزم و سقته نفسه ذوب الحديد المتوقد؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۹

ما رأيكم فى الطفل الوادع الذى يصرخ فيقول:

ستعلمون ما يكون منى‌إن مدّ فى ضبعىّ طول سنى

ما رأيكم فى الطفل الذى يبدأ بمحاسبة نفسه فيقول:

أ أدع الدنيا و لم تدعنى‌يلعب بى عناؤها المعنّى

ما رأيكم فى الطفل الذى يرى نفسه قرين الزمان:

إن كنت غير قارح فإنى‌أبذّ جرى القارح المسنّ

جننت بأسا و الشجاع جنى‌آثار طعن الدهر فى مجنى

تشهد لى أن الزمان قرنى‌سوف ترى غبارها كالدجن

ما رأيكم فى الذى يتشوف إلى مصيره فى الفتوّة فيقول:

متى ترانى و الجواد خدنى‌و النصل عينى و السنان أذنى

و أمى الدرع و لم تلدنى إن هذه القصيدة من أنفس ما قال الفتيان، فليحفظها و ليتأدب بها كرام الفتيان.

و صحّ لهذا الفارس و هو فى السادسة عشرة أن يقول:

أمن شوق تعانقنى الأمانى‌و عن ودّ يخادعنى زمانى

و ما أهوى مصافحة الغوانى‌إذا اشتغلت بنانى بالعنان

عدمت الدهر كيف يصون وجهايعرّض للضراب و للطعان

تعرّفنى بأنفسها الليالى‌و آنف أن أعرّفها مكانى

أنا ابن مفرّج الغمرات سوداتلاقى تحتها حلق البطان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۰ و جدى خابط البيداء حتى‌تبدّى الماء من ثغب الرعان

قضى و جياده حول المعالى‌و وفد ضيوفه حول الجفان

تكفّنه ظبا البيض المواضى‌و يغسله دم السّمر اللدان

نشرت على الزمان و شاح عزترنح دونه المقل الروانى

خفيرى فى الظلام اقبّ نهديساعدنى على ذم الزمان

جواد ترعد الابصار فيه‌إذا هزأت برجليه اليدان

كأنى منه فى جارى غديرألاعب من عنانى غصن بان

حيىّ الطرف إلا من مكّريبيّن من خلائقه الحسان

إذا استطلعته من سجف بيت‌ظننت بأنه بعض الغوانى

سأطلع من ثنايا الدهر عزمايسيل بهمة الحرب العوان

و لا أنسى المسير إلى المعالىو لو نسيته اخفاف الحوانى

و كنا لا يروّعنا زمان‌بما يعدى البعاد على التدانى

و نأنف أن تشبّهنا الليالى‌بشمس أو سنا قمر هجان

فها أنا و الحبيب نودّ أناتدانينا و نحن الفرقدان

و ليل أدهم قلق النواصى‌جعلت بياض غرته سنانى

و صبح تطلع الآجال فيهو ناظر شمسه فى النقع عانى

عقدت ذوائب الأبطال منه‌بأطراف المثقفة الدوانى

الأغرب و الأعجب أن تعلموا ان هذا الشعر هو مطلع قصيدة فى المدح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۱

و هى تجربة طريفة فقد كان الشعراء يبدأون قصائد المدح بالنسيب، و كثر منهم ذلك حتى صح للمتنبى ان ينقدهم فيقول:

إذا كان مدح فالنسيب المقدمأكل فتى قد قال شعرا متيم

و المهم ان تعرفوا ما فى هذه القصيدة من الشاعرية، المهم ان تعرفوا ان ذلك الفتى كان يشعر بأنه أعلا من الأمانى و الزمان فيقول:

أمن شوق تعانقنى الأمانىو عن ود يخادعنى زمانى

و اى شاعرية امجد و اعظم من شاعرية من يتمدح بأن جده كفنته السيوف و غسلته الرماح:

قضى و جياده حول العوالىو وفد ضيوفه حول الجفان

تكفّنه ظبا البيض المواضىو يغسله دم السّمر اللدان

و هل رأيتم احلا و اعذب من شاعرية الفارس الذى يتغزل فى جواده فيقول:

خفيرى فى الظلام أقبّ نهديساعدنى على ذمّ الزمان

جواد ترعد الأبصار فيهإذا هزأت برجليه اليدان

كأنى منه فى جارى غديرألاعب من عنانى غصن بان

حيىّ الطرف إلا من مكرّيبيّن من خلائقه الحسان

إذا استطلعته من سجف بيت‌ظننت بأنه بعض الغوانى

ذلكم هو الفارس، و تلكم هى الفروسية، و الذى يقول هذا الشعر فتى كان يرشّح نفسه لإمارة الحج، و منصب القضاء، و نقابة الأشراف، و كذلك كان أسلافنا فتيانا يستهويهم جمال الخيل و ميادين القتال.

و قد ظن جامع الديوان أن الشريف وصف الأسد، و ما وصف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۲

الشريف الاسد بلى، وصف الشريف الاسد لانه وصف نفسه فقال:

سيرعب القوم منى سطو ذى لبدله بعثّر اعراس و ولدان

لا يطعم الطّعم إلا من فريستهإن يعدم القرن يوما فهو طيّان

ماشى الرفاق يراعى اين مسقطهمو السمع منتصب و القلب يقظان

يستعجل الليلة القمراء أو بتهاإذا بنو الليل من طول السّرى لانوا

حتى إذا عرّسوا فى حيث تفرشهم‌نمارق الرمل أنقاء و كثبان

دنا كما اعتسّ ذو طمرين لمظّه‌من فضله الزاد بالبيداء ركبان

ثم استقرت به نفس مشيّعهٔلها من القدر المجلوب معوان

فعاث ما عاث و استبلى عقيرته‌يجرها مطعم للصيد جذلان

قرن إذا طلب الأوتار عن عرض‌لم تفد منه دماء القوم ألبان

و غلمهٔ أخذوا للروع أهبته‌لف البطون على الأعواد خمصان

طارت بأشباحهم جرد مسوّمهٔكأنما خطفت بالقوم عقبان

من كل أعنق ملطوم بغرته‌كأنه من تمام الخلق بنيان

يمدّ للجرس مثل الآستين إذاخان التوجس أبصار و آذان

فاستمسكوا بنواصيها و قد سقطت‌من غائر الجرى ألباب و أرسان

 كعمت فاغرهٔ الثغر المخوف بهم‌يهفو بأيمانهم نبع و مرّان

كأن غرّ المعالى فى بيوتهم‌بيض عقائل يحميهن غيران

إلى كم الرحم البلهاء شاكيهٔلها من النعى إعوال و إرنان

حيرى يضلّونها ما بيننا و لهامنا على عدواء الداء نشدان

النّجر متفق و الرأى مختلف‌فالدار واحدهٔ و الدين أديان

و ثمّ أوعيهٔ الإحسان مكفأهٔفوارغ و وعاء الشر ملآن

إنا نجرّهم أعراضنا طمعافى أن يعودوا إلى البقيا كما كانوا

أنّى يتاه بكم فى كل مظلمهٔو للرشاد أمارات و عنوان

ميلوا إلى السّلم إن السّلم واسعهٔو استوضحوا الحق إن الحق عريان

يا راكبا ذرعت ثوب الظلام به‌هو جاء مائلهٔ الضبعين مذعان

أبلغ على النأى قومى إن حللت بهم‌أنى عميد بما يلقون أسوان

يا قوم إن طويل الحلم مفسدهٔو ربما ضرّ إبقاء و إحسان

مالى أرى حوضكم تعفو نصائبه‌و ذودكم ليلهٔ الأوراد ظمآن

مدفّعين عن الأحواض من ضرع‌ينضو بهامكم ظلم و عدوان

لا يرهب المرء منكم عند حفظته‌و لا يراقب يوما و هو غضبان

 إن الاولى لا يعزّ الجار بينهم‌و لا تهان عواليهم لذلّان

كم اصطبار على ضيم و منقصهٔو كم على الذل إقرار و إذعان

و فيكم الحامل الهمهام مسرحه‌داج و من حلق الماذىّ أبدان

و الخيل مخطفهٔ الاوساط ضامرهٔكأنهن على الأطواد ذؤبان

اللّه اللّه أن يبتزّ أمركم‌راع رعيته المعزىّ و الضان

ثوروا لها و لتهن فيها نفوسكم‌إن المناقب للأرواح أثمان

فمن إباء الأذى حلّت جماجمهاعلى مناصلها عبس و ذبيان

و عن سيوف إباء الضيم حين سطوامضى بغصته الجعدىّ مروان

فإن تنالوا فقد طالت رماحكمو إن تنالوا فللأقران أقران

ذلك وصف الأسد كما تصوّره جامع الديوان، فماذا ترون فى هذا القصيد؟

إن الشاعر هنا قوىّ الروح جدا، و لا يمكن إدراك قوة الروح هذا فى القصيد إلا بقراءته مرتين أو مرات، و هو شبّه نفسه بالأسد و ساقه ذلك إلى وصف الأسد، و لكن أى وصف؟ انه وقف عند المعانى النفيسة التى تصور ما فى الاسد من عزة و كبرياء.

ثم تحدث عن رفاقه فى الحرب أجمل حديث فجعل المعالى فى بيوتهم بيضا عقائل تحميها الغيرة و يحرسها الإباء.

ثم التفت إلى قومه فعنّفهم على التنابذ و التقاطع، و عجب من أن يتفق الاصل و يختلف الرأى، و جزع من تعدد الاديان مع وحدة الوطن.

ثم استصرخهم الى حماية الحوض، و ذكّرهم بالذين نثروا جماجمهم على

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۵

المناصل فى سبيل الحفاظ.

و القصيدة جيدة جدا، و من العجب أن يسكت عنها نقاد المعانى.

و للشريف قصائد طوال قصرها على همومه فى المعالى، منها الميمية

أرى نفسى تتوق الى النجومسأحملها على الخطر العظيم

و فيها يقول:

و لى أمل كصدر الرمح ماضسوى أن الليالى من خصومى

و يمنعنى المدام طروق همىفما يحظى بها الا نديمى

و ما أوفت على العشرين سنىو قد أوفى على الدنيا عزيمى

و له فيها نفثات موجعات:

أرى الأيام عاديةعلينابيبيض من نوائبها وشيم

يضلّ نفوسنا داء عقامفيسلمنا الى أرض عقيم

و نبتع بالدموع و أىّ دمعيجير و لو أقام على السّجوم

و يفردنا الزمان بلا قريبيذمّ من الزمان و لا حميم

و نلقى قبل لقيان المنايارماح الداء تطعن فى الجسوم

و فيها يقول:

ألا من مبلغ الأحياء أنىقطعت قرائن الزمن القديم

و أنى قد أبيت مقام رحلىبوادى الرمث أو جبل الغميم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۶ و عن قرب سيشغلنى زمانىبرعى الناس عن رعى القروم

و مالى من لقاء الموت بدّفمالى لا أشدّ له حزيمى

سألتمس العلا اما بعربيروّون اللهاذم أو بروم

و هذا كلام نفيس جدا، و هو قوىّ الدلالة على خطر ما كان يصطرع فى تلك النفس من آمال.

و له ميمية أخرى منها هذه الأبيات:

و ما ابن غيل تذيع الموت طلعتهاذا تطلّع غضبانا من الأجم

يجلو دجى شدقه عن صبح عاصلةمطرورة كشبا المطرورة الخذم

يوما بأقدم منى فى ململمة شعواء تعزف بالعقبان و الرّخم

و له ثالثة جمع فيها بين الفخر و النسيب فقال:

ألا خبر عن جانب الغور واردترامى به أيدى المطىّ الرواسم

و انى لأرجو خطوة لوذعيةتجيب بنا داعى العلا و المكارم

نداوى بها من زفرة الشوق أنفساتطلع ما بين اللهى و الحيازم

و انى على ما يوجب الدهر للفتىو لو سامه حمل الامور العظائم

مقيم بأطراف الثنايا صبابةأسائل عن أظعانكم كل قادم

و أرقب خفّاق النسيم اذا حدامن الغرب أعناق الرياح الهواجم

عبقرية الشريف الرضى، ج١، ص: ١٩٧ بنات السّرى هذا الذى كان قلبهيسومك أن تصلى بنار العزائم

و من كل وضاح الحسام مشمرااذا شحبت فينا وجوه المظالم

يمسّح أضغان العدوّ و انمايقبّل ثغرا من ثغور الأراقم

اذا شهد الحرب العوان تدافعتصدور المواضى فى الطلى و الجماجم

و عفّر فرسان العدا و دماؤهمجوامد ما بين اللحى و العمائم

حدا فقده كلّ العيون الى البكافقطّع أرسان الدموع السواجم

و ما خطرت منه على المجد زلةفيقرع فى آثارها سنّ نادم

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةألاطم أعناق الرّبا بالمناسم

و هل تقذف البيداء رحلى اليكم‌تنفّس عن ليلى أنوف المخارم

و لا بدّ أن ألقى العدا فى حميلةمن الخيل تولى بالقنا و الصوارم

و الجمع بين الفخر و النسيب كثير فى شعر الشريف، و هو شاهد على اشتباك النوازع فى تلك الروح، فذلك قلب يجمع بين العنف و اللطف، و القسوة و اللين، هو قلب عامر النواحى، فيه حنان الأطفال، و صيال الأبطال، يرقّ فتحسبه نسيما، و يقسو فتحسبه جحيما، و انظروا كيف يقول و هو يجمع بين الفخر و النسيب:

يا دار ما طربت اليك النوقالا و ربعك شائق و مشوق

جاءتك تمرح فى الأزمّة و البرىو الزجر ورد و السّياط عليق

و نحنّ ما جدّ المسير كأنماكل البلاد محجّر و عقيق

دار تملّكها الفراق فرّقهابالمحل من أسر الغمام طليق

شرقت بأدمعها المطىّ كأنمافيها حنين اليعملات شهيق

الآن أقبل بى الوقار عن الصبافغضضت طرفى و الظباء تروق

و لو أننى لم أعط مجدى حقهأنكرت طعم العز حين أذوق

عبقرية الشريف الرضى، ج١، ص: ١٩٨ رمت المعالى فامتنعن و لم يزلأبدا يمانع عاشقا معشوق

و صبرت حتى نلتهنّ و لم أقلضجرا دواء الفارك التطليق

ما كنت أول من جثا بقميصهعبق الفخار و جيبه مخروق

كثرت أمانىّ الرجال و لم تزلمتوسعات و الزمان يضيق

من كل جسم تقتضيه حفرةفكأنه من طينها مخلوق

و القصيدة طويلة جدا، و يكفى أن ننبه إلى بعض المحاسن فيما أنشدناه و الشاعر فى هذا النسيب يجعل المطىّ باكيات، و الشعراء يتصورون المطى باكيات، و لكنها فى هذه المرة تبكى لبكاء الشاعر فهى لا تحن الى العطن الذى ستعود اليه، و انما تبكى على الديار التى يفارقها صاحبها الأمين و يصور الشاعر ما يقع من النزاع بين العقل و الهوى فيقول:

الآن أقبل بى الوقار عن الصبافغضضت طرفى و الظباء تروق

ثم ينص على أن العزّ لا طعم له الا إن ناله الرجل عن طريق الكفاح فيقول:

و لو اننى لم أعط مجدى حقهأنكرت طعم العز حين أذوق

و يرى المعالى معشوقات فيقول:

رقت المعالى فامتنعن و لم يزلأبدا يمانع عاشقا معشوق

و قد صدق: فالعزائم كالقلوب لها صبوات، و المعالى أحق بالعشق من الملاح و يتأثر الخلق النبيل خلق الفتيان الذين يتمدحون بالقميص الممزق، فيقول:

ما كنت أول من جثا بقميصهعبق الفخار و جيبه مخروق

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۹

و عبق الفخار أشرف من عبق الطيب، و إن غضب الشبان الظرفاء.

و النص على الخشونة و التشعث فى شجعان الفتيان قديم فى الشعر العربى فما ابتكره الشريف، و لكن إلحاحه فى توكيد هذا المعنى له دلالة قوية عند من يعقلون، و انظروا أيضا كيف يقول:

وعدت يا دهر شيئا بتّ أرقبهو ما أرى منك إلا وعد عرقوب

و حاجة أتقاضاها و تمطلنىكأنها حاجة فى نفس يعقوب

لأتعبن على البيداء زاحلةو الليل بالريح خفّاق الجلابيب

فى فتية هجروا الاوطان و اصطنعواأيدى المطايا بإدلاج و تأويب

من كل أشعث ملتاث اللثام لهلحظ تكرّره أجفان مذءوب

يوسّد الرحل خدا ما توسّدهقبل المطالب غير الحسن و الطّيب

و هو فى هذه المرة يجعل جنوده شبانا نشأوا فى النعيم، ثم قهرهم حب المعالى على فراق النعيم، و هذا أبلغ فى تصوير المجد.

و يصور قلق الفتى الصوّال فيقول:

سئمت زمانا تنتحينى صروفهوثوب الأفاعى أو دبيب العقارب

مقام الفتى عجز على ما يضيمهو ذلّ الجرىء القلب إحدى العجائب

سأركبها بزلاء إما لمادحيعدّد أفعالى و إما لنادب

إذا قلّ عزم المرء قلّ انتصارهو أقلع عنه الضيم دامى المخالب

و ما بلغ المرمى البعيد سوى امرىءيروح و يغدو عرضة للجواذب

و ما جرّ ذلّا مثل نفس جزوعةو لا عاق عزما مثل خوف العواقب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۰ ألا ليت شعرى هل تسالمنى النوىو تخبو همومى من قراع المصائب

إلى كم أذود العين أن يستفزهاو ميض الأمانى و الظنون الكواذب

حسدت على أنى قنعت فكيف بىإذا ما رمى عزمى مجال الكواكب

و ما زال للانسان حاسد نعمةعلى ظاهر منها قليل و غائب

و أبقت لى الأيام حزما و فطنةو وقّرن جأشى بالأمور الغرائب

توزّع لحمى فى عواجم جمّةو بان على جنبىّ و سم التجارب

و فى هـذه القصـيدة يبـدو الشـريف هادىء النفس، و لكنه هـدوء من يزعجه الهـدوء، و كيف يهـدأ من يتصور الحوادث و هى تـدبّ دبيب العقارب، أو تثب و ثوب الأفاعى؟

و هو يرى مقام الفتى على الـذل عجزا قبيحا، و يرى ذل القلب الجرىء إحـدى الأعاجيب. و انظروا الصورة الشـعرية التى يمثلها الشـطر الثانى من هذا البيت:

إذا قلّ عزم المرء قلّ انتصارهو أقلع عنه الضيم دامى المخالب

و هو يرى الذل من ثمار الجزع، و يرى خوف العواقب داء يقتل عزائم الرجال.

و هناك داليـة نرى تنبيهكم اليها من أوجب الفروض، و هى مما جمع فيه بين الفخر و النسيب:

لأى حبيب يحسن الرأى و الودّو أكثر هذا الناس ليس له عهد

أكل قريب لى بعيد بودهو كلّ صديق بين أضلعه حقد

و للّه قلب لا يبلّ غليلهوصال و لا يلهيه عن خله وعد

يكلفنى أن أطلب العز بالمنىو أين العلا إن لم يساعدنى الجدّ

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۱ أحنّ و ما أهواه رمح و صارمو سابغة زعف و ذو مبعة نهد

فيا لى من قلب معنّى به الحشاو يا لى من دمع قريح به الخد

أريد من الأيام كل عظيمةو ما بين أضلاعى أسد ورد

و ليس فتى من عاق عن حمل سيفهإسار و حلّاه عن الطلب القد

إذا كان لا يمضى الحسام بنفسهفللضارب الماضى بقائمه الحد

و ما العيش إلا أن تصاحب فتيةطواعن لا يعنيهم النحس و السعد

إذا طربوا يوما إلى العز شمّرواو إن ندبوا يوما إلى غارة جدّوا

و كم لى فى يوم الثوية رقدةيضاجعنى فيها المهنّد و الغمد

و لو شاء رمحى سدّ كل ثنيةتطالعنى فيها المغاوير و الجرد

نصلنا على الاكور من عجز ليلةترامى بنا فى صدرها الغور و الوهد

طردنا اليها خفّ كل نجيبةعليها غلام لا يمارسه الوجد

و دسنا بأيدى العيس ليلا كأنماتشابه فى ظلمائه الشّيب و المرد

ألا ليت شعرى هل تبلّغنى المنىو تلقى بى الاعداء أحصنة جرد

يعيد عليها الطعن كل ابن همةكأن دم الأعداء فى فمه شهد

يضارب حتى ما لصارمه قوىو يطعن حتى ما لذابله جهد

إذا عربى لم يكن مثل سيفهمضاء على الأعداء أنكره الجد

و القصيدة طويلة، و فى هذه النفثات كفاية.

و الشـاعر يـذكر أن قلبه يكلفه طلب العز بالأمـانى، ثم يثور على هـذا المطلب لأـنه يعرف أن المعـالى لاـ تنـال بالأمـانى، و إنمـا تنـال بالجهاد.

و يرى أن الحسام ان لم يمض بنفسه فليس له حدّ، و إنما الحد للضارب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۲

الماضى. و هذا معنى نفيس. و إليكم بيت القصيد:

إذا عربىّ لم يكن مثل سيفهمضاء على الاعداء أنكره الجد

و انظروا روعة الفخر فى هذه الأبيات:

شبابى إن تكن أحسنت يومافقد ظلم المشيب و قد أساء

و يا معطى النعيم بلا حساب‌أتانى من يقترّ لى العطاء

متاع أسلفتناه الليالىو أعجلنا فأسرعنا الأداء

سأمضى للتى لا عيب فيهاو إن لم أستفد إلا عناء

و أطلب غاية إن طوحت بى‌أصابت بى الحمام أو العلاء

أنا ابن السابقين إلى المعالىإذا الامد البعيد ثنى البطاء

إذا ركبوا تضايقت الفيافىو عطّل بعض جمعهم الفضاء

نمانى من أباة الضّيم نام‌أفاض علىّ تلك الكبرياء

شأونا الناس أخلاقا لداناو أيمانا رطابا و اعتلاء

و نحن النازلون بكل ثغرنريق على جوانبه الدماء

و نحن الخائضون لكل هولإذا دبّ الجبان به الضّراء

و نحن اللابسون لكل مجدإذا شئنا ادراعا و ارتداء

أقمنا بالتجارب كل أمرأبى إلا اعوجاجا و التواء

تجرّ إلى العداة سلاف جيش‌كعرض الليل يتّبع اللواء

نطيل به صدى الجرد المذاكىإلا أن نورد الاسل الظّماء

أقف عند هذا الحد. أيها السادة، فما يتسع وقتى للنص على جميع المواطن التى تحدّث فيها الشريف عن العلاـ و المعالى، و هى محفوظة فى مذاكراتى،

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۳

و أنا أضن بها على تلاميذى، لأنى أحب لتلاميذى أن يرجعوا بأنفسهم إلى ديوان الشريف و أن يرفعوا ما أقام أستاذهم من قواعد البناء.

أحب لتلاميذى أن يحفظوا جميع ما قال الشريف فى العلا و المعالى فتلك بوارق من الروحانية تحيى ميت العزائم، و تقيم ما صدّعته أجيال البؤس من النخوة العربية.

أحب أن يرجع تلاميذى فيفتشوا على ما أغفلت من القصائد، أحب لهم أن يطيلوا صحبة هذا الروح المتوقد الذى أقام الشرائع لعزائم الفتيان.

و أنتهز هذه الفرصة، أيها السادة، فأعتب على القدماء من مؤرخى الأدب العربى، فقد رأيت أن هذا الشاعر لم يفتنهم إلا بقصائد الحجازيات و لو أن اللّه كان هداهم فالتفتوا إلى أشعاره فى المعالى كما التفت أبو تمام إلى أشعار العرب فى المعالى لأخرجوا من ديوان الشريف مجموعة نفيسة تنفع أجزل النفع فى توجيه الشبان إلى التخلق بأخلاق الأبطال.

اسمحوا لى أيها السادة أن أبتكر عبارة جديدة هى عبارة «معالى الشريف» فهى عندى أفحل و أصدق من «حجازيات الشريف» و هى أعظم من «زهديات أبى العتاهية» و «تشبيهات ابن المعتز» و «مدائح البحترى» و «خمريات أبى نواس».

إن «معالى الشريف» قصائد مقدودة من الفتوّة، و منحوتة من العزيمة و النظر فيها يعود على الروح بأقباس الفحولة و البطولة، و يدخل على الدم جبروت النار و الحديد.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۴

## الشريف كاتبا و مؤلفا

۱- فى الرابع عشر من صفر سنة ۱۳۵۷ فرغت من كتاب «عبقرية الشريف الرضى» و أنا اليوم فى السابع و العشرين من المحرّم سنة ۱۳۵۹، و قد لا أفرغ من هذه الحواشى إلا فى الرابع عشر من صفر، لأنى موزّع الوقت و الجهد بين أسفار و شواغل لا تمنحنى من هدوء البال ما أريد.

فأين كنت من صحبة الشريف قبل فراق عامين؟

كنت أنهيت القول فى حياته الشعرية، و لم يبق إلا أن أتحدث عن مكانته فى الكتابة و التأليف، فما الذى جدّ بعد ذلك الفراق؟

ظهرت فصول عن الشريف الرضى فى مجلة «الغرىّ» كتبها سماحة السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء، و هو من أكابر أهل العلم بالنجف، و لكن تلك الفصول لم تحملنى على أن أرجع إلى كتابى بشىء من التغيير أو التعديل: لأن طريقتى فى البحث تختلف عن طريقته كل الاختلاف، و لأنى أحرص دائما على تجنّب الطريق المسلوك عسانى أوفّق إلى رأى طريف.

و قد تلطّف السيد آل كاشف الغطاء فأشار إلى اسمى مرة بالتصريح و مرة بالتلميح فى مواطن أوجبت فيها الأمانة العلمية ان يستأنس بكلامى فعليه منى أجزل الثناء.

۲- و الآن أرجع إلى الشريف الكاتب و المؤلف بعد أن استجمعت عامين فأقول:

لم يصح عندى أن الشريف كان من كتّاب الرسائل القصار أو الطوال، و إن كنت احتفظت بالآثار التى نقلتها مجلة «العرفان» عن كتاب الدرجات

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۵

الرفيعة، فى أعيان الشيعة، للسيد على خان الشيرازى .

و تعليل ذلك سهل فالشريف غلبت عليه النزعة الشعرية فى كل ما يتصل بنقد المجتمع او الإفصاح عن الوجدان.

و الثروة التى أثرت عنه فى التأليف لا- تنفى ما أقول: لأن تأليف الكتب غير إنشاء الرسائل، فالمؤلف يتخذ أسلوبا فى التعبير يغاير اسلوب النثر الفنى، و قد يبعد عنه اشد البعد فى كثير من الاحايين. الشريف كاتب بلا جدال و لكن طريقته فى التعبير طريقة علمية لا فنّية، و ان غلبت عليها الصنعة فى بعض الاحوال.

و المهمّ هو النص على أن الشريف شاعر أولا- و قبل كل شىء، فحياته الشعرية هى ثروته الباقية على الزمان، و ان كان من أعاظم الباحثين فى الحدود التى تسمح لرجل مثله بأن يكون من أقطاب الحياة الفكرية و العلمية فى عصر «اخوان الصفاء».

و معاذ الأدب أن استخفّ بآثار الشريف فى ميادين الفكر و العقل:

فقد بلغ الغاية فى كتاب «المجازات النبوية» و كتاب «حقائق التأويل» و لو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أماثل العلماء، و لكن عبقريته الشعرية جنت عليه فخفّ ميزانه فى الحياة العلمية بالقياس الى بعض معاصريه و منهم اخوه الذى أتى بالأعاجيب فى الفقه و التوحيد.

و لو أن الرضىّ وقف عند آثاره العلمية لكان له مكان بين أقطاب المؤلفين و لكنه شغل الناس بشعره الفائق فظنوه وسطا بين الباحثين، و هو عند التأمل من أساطين الفكر المنظم الدقيق.

۳- و هنا تسنح الفرصة لتسجيل خصيصة من خصائص الشريف:

فأشعاره لا تشهد بأنه من المشتغلين بالعلوم اللغوية و الشعرية، لأنها فى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۶

الأغلب خالية من السّمات الاصطلاحية، و لأنها أدب صرف لا يعرف البهرج و التزويق الا فى الحدود المقبولة من الصناعة الشعرية، و لو قيل ان الشريف شاعر بدوى ينطق بالفطرة و السليقة و انه أمىّ لا يقرأ و لا يكتب لجاز ذلك فى أذهان من يجهلون مكانته فى التاريخ.

الشريف شاعر بدوىّ منقطع عن الحياة العلمية أشد الانقطاع و هو فى هذه الناحية ظاهر كل الظهور، بحيث يظنّ أنه لم يعرف من حياة العلم ما عرف بشار و أبو نواس و ابن الرومى و المتنبى، الشريف فى شعره بعيد كل العد من اساليب العلماء من نحاة و لغويين و فقهاء، هو شاعر بدوى لا تظهر عليه سيما الحضارة الا فى ترف العقل و الذوق، و هو فى شعره أقل حضارة من عمر بن ابى ربيعة و من الكميت و من جميل، مع انه نشأ فى بغداد و عرف المترفين من أهل فارس و أهل العراق، الشريف فى شعره نموذج للسليقة البدوية التى لم تعرف من الحضارة غير أطياف و لم تسمع بقعقعة النحاة و اللغويين فى بغداد.

فإذا انتقلنا إلى نثر الشريف رأينا شخصية جديدة، رأينا عالما يشهد نثره العلمىّ بأنه من أقطاب الادباء، رأينا رجلا يكتب فى العلوم اللغوية و الشرعية بأسلوب مضمّخ بعطر الأدب الرفيع.

و كذلك نعرف أن للشريف شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف:

شخصية الشارع المطبوع، و شخصية العالم الأديب.

فكيف اتفق لصديقنا الشريف أن يكون كذلك! أغلب الظن أن الرجل كان يعمد إلى الابتكار و الابتداع: كان يرى شعراء عصره قد غلبت عليهم المظاهر الحضرية فآثر التفرد بالشمائل البدوية، فهو بالشعر بدوىّ و هو فى العلم أديب. و تلك خصيصة نادرة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۷

فى ذلك الزمان.

و تظهر هذه الخصيصة إذا وازنا بينه و بين أخيه، و قد نشآ فى بيت واحد و تلقّيا العلم فى الحداثة على رجل واحد هو الشيخ المفيد، فأخوه المرتضى يكتب كما يكتب العلماء، و يشعر كما يشعر العلماء، و نفسيته نفسية عالم لا نفسية أديب، حتى قيل إن المرتضى كان يحرص على منافع دنياه حرص الفقهاء، أما الرضى فكان رجلا سمحا يجود بما يملك، و يرى الكرامة أثمن ما يحفظ الاحرار من ذخائر الوجود.

۵- شخصيّة الشريف شخصية معقّدة عند من يجهل، و لكنها فى غاية من البساطة و الوضوح عند من يعرف، هو رجل يحب التفرد بكرائم المعانى، فهو يشتهى أن يكون شاعرا لا كالشعراء، و أن يكون عالما لا كالعلماء و قد وصل إلى ما يريد.

و لو اتسع المجال لدرس خصائص الشريف لوصلنا إلى طرائف: فأنا أعتقد أن لغة الشريف فى شعره تجمع النوادر من الالفاظ البدوية، و أن لغة الشريف فى نثره تجمع الاطايب من المصطلحات العلمية.

و من المحتمل أن لا تكون حياة العلم عرفت باحثا أمضى قلما من الشريف قبل ذلك العهد، و قد قوى عندى الظن بأنه مهّد السبيل لعبد القاهر الجرجانى، فعبد القاهر عندى تلميذ الشريف فى الميادين البيانية، و ليس كتاب «دلائل الإعجاز» إلا خطوة ثانية بعد كتاب «المجازات النبوية» و إن كان الجرجانى أقدر من الرضىّ على الإفاضة و الاستقصاء.

۶- قد أقول: إن البويطى فى «الامّ» هو أول عالم شرح دقائق الفقه بأسلوب أدبىّ، و إن سيبويه فى «الكتاب» هو أول نحوى شرح تكوين الجمل بعبارة أدبية، و لكنى مع ذلك مقهور على الاعتراف بأن

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۸

الشريف تفرّد من بين سائر الباحثين بأسلوب يجمع بين الرقة و الجزالة فى شرح أغراض القرآن و الحديث.

فكيف اتفق ذلك الشريف.

أعتقد أن مرجع ذلك إلى أخلاقه الشخصية:

فالشريف كان رجلا صريحا فى جميع ما يتناول من الشؤون، و أظهر صفة من صفات الشريف هى بغض النفاق، ألم يتخذ الحج موسم صيد و هو نائب عن خليفة المسلمين؟

كان الشريف يرى أن التعبير الصريح عن أوطار القلوب لا يقع إلا من أشراف الرجال، و بهذا الرأى صح له أن يعبّر عن أحلام هواه بقصائد خالية من شوائب الزور و الرياء.

و قد انساق هذا الطبع السّمح إلى حياته العلمية فعبر عن أغراضه فى اللغة و الفقه و التوحيد بعبارات هى أسلس و أرشق من تبختر الجدول الرّقراق.

۷- و هنالك خصيصة ظاهرة من خصائص الشريف، هى اندماجه اندماجا كليا فى الجوّ الذى يعيش فيه: فهو فى الشعر يخيّل إليك أنه لا يحلّق فى غير الأجواء الشعرية، و يكاد من يطلع على ديوانه يؤمن إيمانا جازما بأنه لم يعرف التعبير عن أغراضه بغير القوافى، و مثله فى ذلك مثل ابن الرومى و قد قيل إن الشعر كان أقل أدواته، و هو قول لا نصدّقه إلا بعناء، لأن شاعرية ابن الرومى أدت إلينا محصولا يمنع من الاطمئنان إلى أنه كان يعبر عن أغراضه بغير القوافى، و قد قرأنا مرة أن البحترى كان من المؤلفين فلم نصدّق، لأن البحترى فيما نرى لا تجود فطرته بغير الغناء.

و قد اتفق لأبى تمام أن يكون مؤلفا، و لكن كيف؟ غلب عليه التصنيف فى اختيار الاشعار، و هو فن ينساق مع ذوق الشاعر كل الانسياق.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۹

۸- يمكن للشاعر أن يكون مؤلفا، كما يمكن للمؤلف أن يكون شاعرا، و لكن الذى وقع للشريف عجب من العجب، فمؤلفاته تشهد بأنه أديب، و لكنها توهمك أنه لم يكن شاعرا تعدّ جياد أبياته بالالوف.

ما الذى نراه حين نقرأ مؤلفات الشريف.

نجد رجلا يحيل على مباحثه الماضية بأسلوب يشعرنا بأنه قضى دهره و هو مشغول بالتأليف، نجد رجلا يحدثنا عن مؤلفاته بلغت العشرات فى موضوعات مختلفات، و تشهد قوة تعبيره، و غزارة علمه بأن «المؤلف» هو الشخصية الاصيلة التى تحتل صدر ذلك الباحث الجليل.

و مؤلفات الشريف تقنعنا بأنه لم يعرف غير الحياة العلمية، و لم يعان شواغل السياسة و الشعر و الحب، و لو أن ديوان الشريف كان ضاع و بقيت مؤلفاته لما صدّق أحد أنه كان من أعلام الشعراء، فضلا عن التصديق بانه أشعر قريش.

۹- يضاف إلى ذلك أن الشريف المؤلف كان واسع الافق: فهو يكتب فى الفقه و التوحيد و النحو و البيان، و له إشارات إلى مؤلفات الأكابر تدل على أنه من المطلعين على ذخائر العلوم الادبية و الشرعية، و له توجيهات لكلام، من سبقوه، توجيهات تشهد بانه تناول حياة التاليف بالنقد و التمحيص و التهذيب.

الشريف العالم شخصية هائلة جدا، و هى تنسيك مواهبه الأدبية و السياسية و الوجدانية، و تفرض عليك الإيمان بانه لم يجد غير ذلك الفن من فنون التفكير الحصيف.

فكيف اتفق له ذلك.

لا تنس أنه كان إماما من أئمة الدين «و أن شهرته بالشعر و الحب كانت

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۰

تؤرّقه من وقت إلى وقت، لأنها كانت دعامة يعتمد عليها أعداؤه فى الغض من مكانته الدينية، مساهم يهوّنون من شانه فيقصونه عن

مناصب التشريف باسم الدين.

فهل نستطيع أن نقول إن الشريف كان يتعمد الكتابة فى الشؤون اللغوية و العلمية ليصدّ عن مجده الادبى و السياسى عدوان خصامه و منافسيه.

لذلك شواهد فى العصر الحديث، فقد كان شاع أن الشيخ محمد عبده رجل أديب لا يصل ذهنه إلى قرارة العلوم الازهرية، فحمله ذلك على الدفاع عن سمعته العلمية، فالف فى شؤون دقيقة لا يحسنها إلا الأزهريون المتفوقون.

و كان شاع أن الشيخ محمد المراغى رجل بعد عهده بالعلوم الازهرية فصدّ كيد خصومه بدروس ألقاها فى علم الاصول.

۱۰- لم يبق عندى شكّ فى أن الشريف كان يفهم جيدا أنه معرّض للأكاذيب و الاراجيف بسبب إيغاله فى شعاب الصبابة و الوجد، و بسبب حيرته فى بيداء الحياة السياسية، فلم يكن له بدّ من تمزيق الحبائل التى ينصبها أعداؤه و حاسدوه، و كذلك أقبل على التالف بعزائم الفحول ليقيم الادلة و البراهين على انه أهل للتشريف باسم العلم و الدين.

فما الذى وصل اليه؟

ما زال الرجل يبدىء و يعيد حتى أتى بالغرائب و العجائب فى ميادين الفكر و العقل، و حتى صحّ القول بانه تفرد بآراء لم يهتد إلى مثلها الاسلاف.

۱۱- و هنا تظهر خصيصة جديدة من خصائص الشريف، هى خصيصة العالم المزوّد بادوات الادب، و الادب هو ديوان العرب، و هو

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۱

التعبير الصادق عن ذوقهم الاصيل.

و لو بقيت آثار الشريف فى التاليف لجاز القول بانه طراز فريد بين أقطاب المؤلفين، و لكانت له منزلة تعز على من رامها و تطول.

على أن الآثار الباقية لهذا الباحث المبتكر لم تخيّب ظنون محبيه، فهى تدلّ على القيمة الاصيلة لمواهبه العقلية، و هى تعرب عن قدرته على التصرف فى علوم القدماء.

۱۲- و ليست اولئك الخصائص هى كل ميزات الشريف المؤلف، فهنالك خصيصة أعظم و أروع، و هى طغيان العقلية العلمية على النزعة المذهبية.

كان الشريف شيعيا، و الشيعة فيما يظهر كانت لهم آراء خاصة فى فهم أغراض القرآن و الحديث، و الشريف نفسه لم يحفظ القرآن إلا فى سن الثلاثين مع أنه نشا فى بيت من بيوتات الدين، و تلك ظاهرة قد توهم أن حفظ القرآن لم يكن عند جماعته فرضا على المشتغلين بالشؤون الدينية، و من اجل ذلك كثرت القالة حول أولئك القوم و احتاجوا إلى الدفاع عن انفسهم من هذا الجانب الدقيق.

و حين زرت السيد آل كاشف الغطاء بالنجف رأيت أمامه نسخة من المصحف الشريف، فحدّق فى وجهى و قال: إشهد أنك رأيت للمصحف فى يدى و قد زرتنى على غير ميعاد! و انما احتاج الرجل الى هذه العبارة لأن فى الشيعة فرقة لا تهتم كثيرا بالمصحف الشريف، و هى فرقة لا يرضى عنها جمهور الشيعة فى العراق.

و المهم هو النص على ان الشريف كان شيعيا سليما، أعنى انه كان مسلما صحيح العقيدة، و التشيع فى جوهره لا ينافى الدين إلا حين يوكل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۲

أمره إلى الجهلاء من أهل الانحراف.

و لا يحتاج الشريف إلى من يشهد له بصحة الدين، و هو من عظماء المؤمنين و إنما انساق القول إلى فضل هذا الرجل فى حماية البيئات الشيعية من ضلالات الذين كفروا باسم التشيع، و هو فضل عظيم.

مثل الشريف بين أهل التشيّع كمثل الجاحظ بين أهل الاعتزال، فالجاحظ لا يدرك مراميه غير الخواصّ، و كذلك الشريف لا يدرك

مراميه غير الخواص.

و أقول: إن اهتمام الشريف بشرح خصائص البلاغة القرآنية و البلاغة النبوية هو دحض للمفتريات التى وجهت إلى التشيع، و التى ادعت ان الشيعة لا يهتمون بالقرآن و الحديث.

و من هنا نفهم أن الشريف المؤلّس كان معلّما عظيما، و كان من الساهرين على رعاية الوحدة الإسلامية، و هو بالتكريم خليق.

النفحات السارية فى مؤلفات الشريف هى أنفاس المؤمن الحق، المؤمن الخالص من شوائب الابتداع و التجديف .

۱۳- يؤيد هذا ما أثر عن الشريف من الاهتمام بدرس مذهب الشافعى و هو مذهب سنى أصيل، و لا يقال إن مرجع ذلك إلى عذوبة لسان الشافعى فيما يتصل بأهل البيت، لأن تعظيم أهل البيت مما يرعاه السنيون كما يرعون كرامة سائر أهل العلم و الدين.

و إمارة الحج التى وكلت إلى الشريف و إلى أبيه من قبل تشهد بأن التشيع لم يكن ينظر اليه بعين الغضب و المقت، فقد كان مذهب أهل السنة هو

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۳

السائد يومئذ فى العراق، و لم يكن السنيون يرون ما يمنع من أن تكون إمارة الحج لرجل شيعىّ فى مثل فضل الشريف.

فما معنى ذلك؟

معناه أن الغلوّ فى التحاقد بين المذاهب الإسلامية لم يكن يقع إلا من أهل الغفلة و الحمق، أما أهل اليقظة و العقل فكانوا يعرفون أن الاختلاف فى الفروع لا يضير مع الاتفاق فى الاصول، و كذلك اشترك عقلاء السنة فى الالتفات حول راية القرآن و الحديث، و لن تمرّ أعوام طوال قبل أن تسود الالفة بين سائر المذاهب الإسلامية، و يحلّ الوفاق مكان الشقاق.

۱۴- و مهما يكن من شىء فالخلاف بين السنة و الشيعة هو جزء من ماضينا، و هو خلاف كان له فضل عظيم فى يقظة العقول و الآراء، فواجبنا اليوم هو الدعوة إلى التآخى الصحيح بحيث يمكن نسيان ما وقع فى ماضينا من صراع و نضال.

و العبرة من هذا الكلام: هى إبراز شهامة الشريف، الشريف الشيعى الذى عاش فى عصور لا تخلو من ظلمات، و استطاع مع ذلك أن يكون مثلا فى السماحة المذهبية، و أن يظفر بعطف من ترجموا له من أهل السنة، و أهل السّنّة رجال ينصبون و الموازين لأقدار الرجال.

۱۵- و هنا ملاحظة تستحق التسجيل.

لما دخلت العراق وجدت قوما من أهل العلم يحقدون علىّ أشفع الحقد بسبب كتاب «الأخلاق عند الغزالى» ثم هالنى أن أعرف أن السيد هبة الدين الشهرستانى من أولئك الحاقدين و هو شيعىّ لا سنىّ، فكيف يتعصب للغزالى و هو خصمه فى المذهب؟

تعصّب الشهرستانى للغزالى لمعنى نبيل هو الغضب للنيل من إمام جليل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۴

مثل الغزالى، و كذلك تكون شمائل العلماء.

و رأيت هناك باحثا يعطف علىّ لاهتمامى بدرس أشعار الشريف و هو الاستاذ عباس العزّاوى فقدّرت أنه شيعىّ، ثم عرفت أخيرا انه سنىّ، و كذلك يكون الصدق فى فهم المعانى.

و رأيت الاستاذ طه الراوى يحفظ ديوان الشريف عن ظهر قلب فحسبت ذلك برّا بالعصبية المذهبية، ثم عرفت أنه سنىّ لا شيعى، و طه الراوى من أعيان الفضل و العلم و الذوق فى بغداد.

صديقنا الشريف هو الذى سنّ شريعة التسامح بين المذاهب و الآراء، و فضله على الشيعة عظيم: لأنه خلق لهم صداقات فى البيئات السنية و حفظ لهم مكانة عالية فى العراق بفضل جهاده فى الأدب و الدين.

و نحن فى مصر لا نحس الخلافات المذهبية، و يؤذينا أن نعرف أن إخواننا فى الدين يثور بينهم الخلاف من حين إلى حين، فهل

أرجو التقرب إلى اللّه بتهوين شـأن تلك الخلافات! و هل أستطيع الترحم على الشريف لأنه منحنى الفرصة لهذه الكلمات التى أردت بها التقريب بين القلوب.

اللّه يشهد أنى أكتب هذا و أنا متوجع، فما يرضينى أن يقال إن فى المسلمين أقواما يخاف بعضهم بأس بعض.

الخلاف جميل على شرط أن لا يصل إلى القلوب.

الخلاف نعمة ربانية إذا وقف عند اصطراع العقول، فان جاوز ذلك فهو رجس من عمل الشيطان.

الشـقاقات المذهبية لم يعرفها الشرق و الغرب إلا فى عصور الظلمات، و نحن فى عصر النور، فان لم يكن بد من الخلاف فلنختلف فى أساليب الخلاص من أقفاص الظلم و الاضطهاد، و القراء يعرفون ما أعنى و من أعنى.

يرحم اللّه الشريف فقد داس الشهوات المذهبية بقدميه فظفر بالإعزاز

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۵

و التبجيل من الجميع.

«وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ» ۱۶- أيرانى القارىء حددت خصائص الشريف كاتبا و مؤلفا؟

لقـد وضـعت الاسـاس لمن يهمه أن يستقصـى أحوال الشـريف فى الكتابـة و التأليف، و لم يبق إلا أن أقـدّم بعض الشواهـد التى تعين مذاهبه فى التعبير، فما هى تلك المذاهب! أنا أعتمد فى تحديد مذاهبه الإنشائية على كتابين اثنين: المجازات النبوية، و حقائق التأويل.

أمـا كتـاب «المجـازات النبويـة» فقـد طبع أولا فى بغـداد طبعا ممسوخا تأذّى به روح المؤلف، ثم طبع أخيرا فى القاهرة بعنايـة الاسـتاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية، و قد تأنقت مكتبة مصطفى الحلبى بإخراجه فى حلة رقيقة الحواشى.

و أما كتاب «حقائق التأويل» فقد طبع بالنجف و أخرجه «منتدى النشر» فى رونق جميل.

۱۷- ما هى تلك المذاهب الإنشائية؟

نلمح- أولا- ان الشريف الكاتب قصير النفس، فهو لا يطنب إلا فى قليل من الاحايين.

و نلاحظ- ثانيا- أن الشريف الكاتب قليل الفضول فهو لا يتكلم إلا بميزان.

و نرى- ثالثا- ان الشريف المؤلف قليل الاستطراد، و هذا يشهد بأن النزعة الفنية أغلب عليه من النزعة العلمية، لأن العلماء الذين سبقوه كانوا يتخذون الاستطراد وسيلة إلى عرض ما تقضى به المناسبة من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۶

المعارف الأدبية و اللغوية و الشرعية.

و نشهد- رابعا- أن الحرفيات قد تسيطر عليه، فقد همّه أن يسجل أن

قول الرسول فى أحد: «هذا جبل يحبنا و نحبّه»

محمول على المجاز، لأن الجبل على الحقيقة لا يحبّ و لا يحب.

و هـذا خطأ من الشـريف سـاقه اليه خضوعه للحرفيـات فى بعض الاـحوال فـالرسول فى رأبى أراد الحقيقـة لاـ المجاز، و سـرّ ذلك لا يدركه غير من يطمئن إلى فكرة «وحدة الوجود».

و نسـجّل- خامسا- أن الشـريف يحرص بعض الحرص على السـجع و الازدواج، لـذلك شواهـد مبثوثة فى المجازات النبوية و حقائق التأويل يدركها المطالع بدون عناء.

و نقرر- سادسا- أنه قد ينسـى الزخرف نسـيانا تاما فى بعض المواضع فيصـبح اسلوبه و هو مثل أعلى فى سماحة التعبير، كأن يقول فى تلخيص ما قاله على بن عيسى النحوى فى أحوال كان:

«قال لى فى القراءة عليه: إن لكان أربعـة مواضع: أحدها أن تكون مسـتقلة بالفاعل غير مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان الأمر، أى حدث و

وقع.

و الثانى أن تكون ممنوعة من الحدث مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان زيد منطلقا و يكون عمرو شاخصا. و الثالث أن تكون زائدة، مثل قولهم:

زيد- كان منطلق و ما- كان- أحسن زيدا، أى ما أحسن زيدا، كقول الشاعر:

«و جيران لنا كانوا كرام» إذا لم تجعل «لنا» الخبر و جعلته صفة جيران كأنك قلت: «و جيران لنا كرام كانوا» و الرابع أن تكون كصار، تقول: كان زيد منطلقا، أى صارت حاله هذه تريد هو الآن كذا لا فيما مضى، و أنشد قول الشاعر:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۷ بفيفاء قفر و المطىّ كأنهاقطار الحزن قد كانت فراخا بيوضها

يريد صارت فراخا. قلت أنا و الصحيح فى رواية هذا البيت

«قد صارت فراخا بيوضها» و إنما غيّر ليوافق الاستشهاد، فلأجل ذلك ضعف هذا القسم من بين أقسام كان» .

فهذا كلام تقريرى يقوم على أساس الدقة و الجلاء، ثم ختمه بلفتة نقدية تؤرخ عبث النحاة بروايةالشعر ليوافق الاستشهاد! و هذه اللمحة تبيح لنا أن نسجل- سابعا- أن الشريف فى مؤلفاته كثير الاهتمام بشرح الدقائق النحوية، و النحو كان فى تلك العهود ميدانا لسباق الفرائح الجياد.

۱۸- أما بعد فتلك حالة الشريف الكاتب و المؤلف، و هى تجلوه فى صورة تضيف إلى حياته الشعرية ألوانا من الظلال، و هى تؤكد ما قلناه من أنه شاعر مثقّف يرى الوجود فى ظواهره و خوافيه بعين الناقد البصير الذى لا يشغله التأمل فى جمال الوجود عن النظر فى فهم الرجال لحقائق الوجود.

الشريف عجيب حقا، فهو تارة يحدّثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان باب كذا من أبواب النحو و أن شيخه قال له كيت و كيت، و تارة يحدثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان باب كذا من أبواب الفقه و أن شيخه قال له زيت و زيت، و حينا يذكر أنه اختلف فى فهم آية أو حديث، و انه اعترض بكيت فأجيب بزيت، و احيانا يتحدث عن مصاولاته مع اللغويين و ما نقل عنهم من توجيه كلام الأعراب.

و فى هذا الجوّ المشبع بأقباس المجادلات النحوية و الفقهية و الادبية

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۸

و اللغوية لا ترى الشريف إلا شيخا يجادل أهل العلم و الأدب و الدين فى مساجد بغداد و هو فى زى المجاورين الذين شرّفهم اللّه بالانقطاع إلى البحث و التنقيب فى مخلّفات القدماء.

ثم تلتفت فتسمع أنه كان فارسا لا يشق له غبار.

ثم تنظر فتعرف أنه كان من أقطاب السياسة و من أهل البصر بتدبير المكايد فى ظلام الليل.

ثم يصل إلى علمك أنه كان عاشقا يحسّ الجمال بأروع مما أحسّ عمر و كثير و جميل.

ثم تسمع أنه صال و جال فى اشهر الاقطار الإسلامية بالشرق.

ثم تعلم انه كان مدير مدرسة، و انه مع ذلك تعقب اخبار الماجنين و العابثين.

ثم تعرف انه كان ربّ بيت و له اهل و أبناء.

فما معنى هذا التعقيد الغريب؟

معناه ان الشريف الرضى كان منوّع المواهب، و ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، فلا يعجب الكسالى المتزمتون من ظفره بحسن السمعة فى جميع ما اخترق من الميادين، و لا يستكثروا عليه ان يكون من افاضل المؤلفين! و أكابر المربين و أشاوس الفرسان، و اماجد العشّاق، و اماثل العارفين الواصلين، و لو عرف قبره على التحقيق لكان مثابة لطلاب الخيرات و البركات، رحمه اللّه و طيّب مثواه، و

جعلنا من اصدقائه الاوفياء!!

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۲۱۹

## نهج البلاغة و الشريف

۱- خلّف الشريف فيما خلّف كتابا نفيسا هو «نهج البلاغة» و هو مجموعة كبيرة من الخطب و الرسائل و الوصايا و الحكم و المواعظ المنسوبة إلى أمير المؤمنين .

و ما أحب أن أعيد ما قلته عن أمير المؤمنين فى كتاب «المدائح النبوية» و لا ما قلته عن نهج البلاغة فى كتاب «النثر الفنى» أو كتاب «وحى بغداد».

و إنما يهمنى أن أنشىء فصلا جديدا عن نهج البلاغة أحدد به موقع ذلك الكتاب من الأدب العربى، و أكمل به المباحث حتى تعرضت لها من قبل، و أنا بعيد كل البعد من التحيز لذلك الكتاب أو التحامل عليه.

۲- لقد ثارت الشكوك حول نسبة محصول نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين، و هذه الشكوك مما يشرّف ماضينا: لأنها فرع من التحقيق العلمى الذى تفوّق فيه أسلافنا أشد التفوّق، و ما يجوز القول بأن تلك الشكوك قامت جميعا على أساس النزعات المذهبية، فقد كان فى أسلافنا رجال لا يهمهم غير الحق و لا يستهويهم غير الصدق، و لا يرضيهم أن يزوّر التاريخ.

۳- و قد حدثنا ابن أبى الحديد عن ألوان تلك الشكوك، و هى تلخّص فى أن كثيرا من أرباب الهوى يقولون إن كثيرا من نهج البلاغة كلام محدث

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۲۲۰

صنعه قوم من فصحاء الشيعة، و ربما عزوا بعضه إلى الرضى أبى الحسن و غيره.

و نحن نعتب على ابن أبى الحديد بعض العتب، فإن عبارة «أرباب الهوى» لا- تخلو من جفاء، و فيها غض من أقدار الباحثين الذين أرادوا أن يمسّوا نهج البلاغة بالوضع و التزييف.

۴- و الحقّ أن الأدب العربى تعرّض إلى شبهات كثيرة من هذا اللون:

فقد كان للاحزاب السياسية و الدينية دخل فى تلوين الآثار الادبية، و قد حدثنا بعض المؤرخين عن أشعار أضيفت إلى كثير من القبائل الجاهلية، ألم ينص صاحب الاغانى على أن يزيد بن المفرّغ هو الذى صنع الأشعار المنسوبة إلى القبائل اليمنية.

۵- و نزاع المذاهب لم يكن أقل من نزاع القبائل، فقد وصل الخصام بين الأمويين و العلويين إلى أقصى حدود القسوة و العنف، و من المستبعد أن يكون أنصار الغلويين قد تفردوا بالتجمّل و إيثار الصدق فى محاربة أعدائهم من الامويين.

و هل يجوز أن يلتزم العلويون الصمت و هم يرون طلائع الشر تفاجئهم من كل باب.

لا يقول بذلك إلا من يجهل كيف تأرّثت نار العداوة بين الحزبين لذلك العهد، العداوة التى قضت بأن يأمر بنو أمية بسبّ علىّ فوق المنابر، و بأن ينهوا الناس عن تسمية أبنائهم باسمه و هذا الحمق السياسى غير مستغرب:

فقد رأينا له شبيها فى زماننا يوم أمرت إحدى الوزارات المصرية بأن لا يذكر اسم سعد زغلول فى الجرائد! فالذى يتّهم الشيعة بأنهم أنطقوا عليّا بأقوال لم يقلها ليؤيدوا قضيتهم

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۲۲۱

المذهبية لا يبعد فى حكمه عن الروح الذى كان سرى فى الخصومات السياسية لتلك العهود.

۶- و لهذا الرأى شاهد من التاريخ: فقد أسرف الشيعة فى تحقير يزيد حتى صار مثلا فى الرقاعة و السّخف، و مع ذلك رأينا من يرفع يزيد إلى صفوف العظماء، كالذى صنع مؤلف «نجباء الأبناء» فهو يرد قالة بقالة، ليرفع عن يزيد إصر الاراجيف.

و على ذلك لا- يستغرب فى شرعة العقل أن تكون مناقب الامويين و العلويين مدخولة فى كثير من الشؤون وفقا لما اصطلح عليه العرف السياسى من تحقير الأعداء و تعظيم الاصدقاء.

و العرف السياسى خلقه أسلافنا، أو سلكوا فيه مسالك اليونان و الرومان و هو عرف يقضى بأن لا ترى فى صديقك غير الحسن، و لا ترى فى عدوّك غير القبيح.

و الادب العربى مدين للافك السياسى أكبر الدّين، فبفضل ذلك الإفك خلقت محامد و مثالب هى صور روائع من الشمائل الإنسانية، و لو خلا- أدبنا من ذلك الافتعال الجميل أو البغيض لصار مثلا فى العجف و الهزال ۶- و أقول بصراحة إن التزيد على أمير المؤمنين أمر واقع، و هذا التزيد يشرّف من اقترفوه، لأنه يشهد بأنهم كانوا رجالا أقوياء يعرفون كيف يتسلحون للحرب السياسية، و هى حرب لا ينهزم فيها غير من يتورعون عن الابتداع و الافتعال.

و سيأتى يوم نعرف فيه أقدار الكتاب البارعين الذين أمدّوا الحرب السياسية بوقود من سحر الفصاحة و البيان، و الذين أذاعوا فى محصول الادب العربى روح القوة و النضال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۲

۷- التزيّد على أمير المؤمنين أمر واقع، و التنصّل منه جهل، و لكن المشكلة هى وضع «نهج البلاغة» فى موضعه الصحيح.

عندنا فى هذا المقام مشكلتان:

الاولى عبقرية علىّ بن أبى طالب، عبقريته الخطابية و الإنشائية.

و الثانية ضمير الشريف الرضى.

و المشكلة الاولى تحدثت عنها فى كتاب «النثر الفنى» فقد كان معروفا ان ابن أبى طالب له مجموعة من الخطب، مجموعة تحدث عنها الجاحظ فى مطلع القرن الثالث، و هل يعقل أن يتضيع آثار ابن أبى طالب ضياعا مطلقا و كان فى زمانه و بشهادة خصومه من أفصح الخطباء.

كان على خطيبا مفوّها، و كان كاتبا فصيحا.

فأين ذهبت آثاره فى الخطابة و الانشاء؟

و هل يعقل أن تضيع آثاره و حوله أشياع يحفظون كلّ ما ينسب اليه؟

هل يعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين و الماجنين من أهل العصر الاموى و ينسوا آثار خطيب قتل بسببه ألوف و ألوف من أبطال الحروب؟

و من الذى يتصور أن الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى و اليهود و تنسى خطب الرجل الذى غسّل بدمه فى يوم من أيام الفتن العمياء؟

و إذا جاز أن يحفظ الناس ما دسّه المغرضون على أمير المؤمنين فكيف يجوز أن ينسوا اما نسب اليه على وجه صحيح؟

و أين العقل الذى يقبل القول بأن عليّا لم يحى بيانه إلا فى الآثار المفتريات؟

أين و نحن نجزم بأن فى الشيعة أنفسهم رجالا من العرب الصرحاء الذين يؤذيهم الكذب و الافتعال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۳

و هل كان الشيعة إلا قوما تستهويهم السياسة حينا، و يأسرهم الصدق فى أحايين.

لا مفرّ من الاعتراف بأن «نهج البلاغة» له أصل، و إلا فهو شاهد على أن الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ.

۸- أما ضمير الشريف الرضىّ فهو عندى فوق الشّبهات، و هو قد خدم التشيّع بالصدق لا بالافتراء، فان كان جمع آثار على بن ابى طالب خدمة سياسية لمذهب التشيّع فهو ذلك، و لكنها خدمة أدّيت بأسلوب مقبول هو إبراز آثار أمير المؤمنين، و لا يعاب على

الرجال أن يخدم مذهبه السياسى بجميع الوسائل و الاساليب ما دام فى حدود العقل و الذوق.

فان قيل إن النقد الصحيح يشهد بأن فى مجموعة «نهج البلاغة» أشياء يبعد صدورها من على بن أبى طالب بسبب الغلوّ فى العصبية، أو بسبب ضعف الديباجة، او بسبب التكلف الذى خلت منه لغة الصدر الاول، بسبب الكلمات الاصطلاحية التى لم تشيع فى ذلك العهد، إن قيل ذلك فنحن نجيب بأن إصر تلك الاشياء لا يقع على عاتق الشريف، و إنما يقع على عواتق من سبقوه من الذين طاب لهم ان ينطقوا امير المؤمنين بأقوال رأوها تؤيد مذهبهم بعض التاييد.

انا لا اقول بأن مجموعة «نهج البلاغة» صحيحة النسب الى امير المؤمنين فى كل ما اشتملت عليه، ففيها فقرات و فصول ينكرها الناقد الحصيف.

و لكنى اقول بأن آثار على بن ابى طالب تعرّضت لمثل ما تعرضت له سائر الآثار الادبية و السياسية و الدينية، ثم اجزم بأن ما فات الشريف من التحقيق لم يقع عن عمد، و إنما وقع عن جهل بما تعرضت له تلك الآثار من الوضع و الافتراء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۴

۹- و هذا الحكم القاسى لا يطوّق به عنق الشريف إلا إن ثبت ان مجموعة «نهج البلاغة» لم تعرّض بعد وفاته للزيادات و الإضافات التى توجبها النزعة المذهبية فى عصور وصل فيها الكفاح السياسى إلى ابعد حدود القسوة و العنف، فان ثبت بعد البحث انها سلمت من الزيادات فهى شاهد على ان الشريف كان يعوزه التدقيق فى بعض الاحايين.

اما اتهامه بالكذب على أمير المؤمنين فى سبيل النزعة المذهبية فهو اتهام مردود، و لا يقبله إلا من يجهل اخلاق الشريف.

۱۰- و مهما تكن حال «نهج البلاغة» فهو وثيقة أدبية و تاريخية و سياسية قليلة الامثال، هو إن صحّ صورة من صور النضال السياسى فى مطلع العصر الاموى، و إن لم يصح فهو ايضا صورة لذلك النضال حسبما فهمت الاجيال التى سبقت مولد الشريف، و هو كذلك ثروة أدبية و لغوية تؤرخ اللغة فى ذلك العهد، او تؤرخ ما فهم الناس انها كانت عليه فى ذلك العهد، و هو ايضا يصور ما فهم العرب من اصول السياسة و المعاش و تدبير الملك فى اعقاب عصر النبوّة، او ما تمثلوه بعد ذلك من تلك الاصول.

هو فى جميع الاحتمالات خدمة أدّاها الشريف إلى اللغة و الادب و السياسة و الاخلاق.

و إنى لأعتقد أن النظر فى كتاب نهج البلاغة يورث الرجولة و الشهامة و عظمة النفس، لأنه فيض من روح قهّار واجه المصاعب بعزائم الاسود.

۱۱- و هناك خدمة ثانية أدّاها كتاب نهج البلاغة للغة العربية، فقد كان فرصة ثمينة لحركة الافهام و العقول.

ألا تعرفون شرح ابن ابى الحديد؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۵

إن ذلك الشرح هو من ذخائر اللغة العربية: ففيه فوائد ادبية و لغوية و تاريخية و فقهية لا يستهين بها إلا الغافلون عما فى ماضينا الادبى و العلمى من اطايب و فرائد و آيات.

۱۲- فإن ذكرتم ان نهج البلاغة شرح نحو اربعين مرة، و إن ذكرتم ان فيه فصولا ترجمت إلى بعض اللغات الشرقية و الغربية، و إن ذكرتم انه فتح امام النقد ابوابا و مذاهب، و إن ذكرتم ان له فضلا على اكثر الفصحاء من الخطباء، و إن ذكرتم انه اشهر مجموعة و اكبر مجموعة حفظة منسوبة إلى عصر الخلفاء، و إن ذكرتم ان له شرق و غرب و لم تخل منه مكتبة عربية او اعجمية من المكتبات التى تستوفى اصول المراجع، و إن ذكرتم ان مفنّديه لم ينكروا قيمته الأدبية ...

إن ذكرتم كل هذه الخصائص عرفتم ان الشريف خدم الادب و اللغة و الاخلاق بجمع أصول ذلك الكتاب الفريد، و صدق ابو فراس حين قال:

و من شرفى ان لا يزال يعيبنىحسود على الامر الذى هو عائب

زكى مبارك مصر الجديدة فى الثامن من صفر سنة ۱۳۵۹

## تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹